الباب الخامس

الإسلام والقوى العظمى

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والقوى العظمى

كانت روسيا أول قوة أوروبية عظمى تغير موقفها تغييراً كلياً تجاه العالم الاسلامى الذى يجتاحه اليوم تغيير فكرى ، وتخترق أجواءه حركات وطنية تدعو الى الحرية والاستقلال ، ويجرى فى أوطانه تشييد نظم سياسية جديدة ، فما يجرى فى العالم الاسلامى اليوم — سواء أكان ذلك على الصعيد السياسى أو ما يتعلق بالتجديد الدينى ، أو ما يتصل بالنهضة الصناعية التى تؤثر تأثيراً كبيراً على وضع المنطقة الاقتصادى — يحتم على الأوروبيين البدء فى مراجعة العلاقة بين الشرق الاسلامى والدول الأوروبية الاستعمارية مراجعة دقيقة وشاملة ، فقد أثر تغيير الموقف الروسى — والموقف الثورى أيضاً — على الرباط القائم بين الاسلام وبين البلاد الغربية غير الروسية •

فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ م — أى بعد انقضاء ستة أسابيع بقليل على وقوع الانقلاب الذى جاء بالبلشفيين فى روسيا الى الحكم — وجهت الحكومة السوفييتية الجديدة نداءها الرسمى الأول — الى كل المسلمين العاملين — الذى أزاح اللثام عن الخطوط السياسية العريضة فى موقف البلشفيين تجاه الشرق ، فقد أخذت موسكو شعارات القومية الشرقية التى انتشرت آنذاك فى المنطقة الاسلامية بعد انهيار تركيا القديمة ، ووجهتها نداءات للتحريض ضد الدخلاء الأجانب والاستعمار الغربى فى العالم الاسلامى • وبأسلوب ماهر بارع وضعت هذه الشعارات أمام الوعد الذى التزمت به انجلترا أمام شعوب المنطقة ، ألا وهو اعطاء مزيد من الحرية ، وتهيئة الشعوب تدريجياً الحكم الذاتى ، ولكن تحت وصاية أوروبا المتحضرة • جاء فى نداء الحكومة السوفييتية : « لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين ، وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يامسلمو روسيا يا من

حربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة لن تمتد اليها يد آثمة • أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية دون أن يعوقها عائق ، فلكم الحق فى ذلك » •

لم يزل النداء موجهاً فقط الى العشرين مليون مسلم الذين يعيشون داخل حدود الدولة الروسية • ولكن فيما بعد اتجه نداء السوفييت الى المسلمين خارج روسيا ، وأعلن : « يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوروبا التجارة قروناً بأرواحكم ، وأموالكم وحرياتكم ، وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم :

— أن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية •

— أن معاهدة تقسيم ايران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستسحب القوات الروسية مباشرة من ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر •

— أن معاهدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت ومحيت من الوجود • وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضاً لشعب أرمينية ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر » •

حددت الكلمات التى احتواها بيان البلشفيين الى العالم الاسلامى أسس الاتجاه السياسى ، التى أراد السوفييت الالتزام بها تجاه الاسلام ، حيث تنتشر الثورة من أتباعه للتخلص من الاستعمار الغربى ، وقد أرادوا بذلك عقد تحالف بينهم وبين المسلمين لمقاومة الاستعمار الرأسمالى ، ويتبين المرء من نغمته — أى بيان البلشفيين — أن السوفييت بدأوا وكأنهم يمسكون بأيديهم مقرعة يدفعون بها القوميين المسلمين للثورة ضد المغتصبين الاستعماريين ، وقد ساعدتهم الظروف — كما

ساعدهم أيضا خطتهم المحكمة فى رسم توقيت الدعاية — على التوغل فى نفوس كثير من الشرقيين — ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بالآثار التى سوف تترتب على هذا فى المستقبل — لتحريضهم ضد القوى العظمى الغربية •

نشرت جريدة « أزفستيا » فى ١٠ ديسمبر ١٩١٧ م — أى بعد فترة وجيزة من نشر بيان البلشفيين الأول — برنامجاً محدداً لسياسة الحكومة السوفييتية تجاه فارس ، وعزز هذا البرنامج بخطاب من « تروتسكى » الى السفير الفارسى فى بطرسبورج • ومما ذكره « تروتسكى » فى هذا الخطاب : التأكيد مرة أخرى على تنازل روسيا عن حقها فى المعاهدة الانجليزية الروسية التى عقدت فى ١٨ أغسطس ١٩٠٧ م والتى نص فيها على تقسيم فارس الى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية •

تجاوبت أصداء البيان الروسى فى العالم الاسلامى ، وأحدث رجع الصوت دوياً فى أرجاء المنطقة ، فتزايدت الأصوات — فى تركيا وفارس — التى هللت للبيان السوفييتى الصادر فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ م ، ووصفته بأنه وثيقة الحرية الكبرى — لو تحقق ما جاء فيه — ، وهكذا بدا أن المبادىء الأساسية لعمل مشترك بين روسيا الحرة وبين الـ ٢٥٠ مليون مسلم الذين يئنون تحت وطأة المغتصبين الأجانب ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى قد وضحت ، وأن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد المستعمر •

أثر النداء الروسى فى الفكر الاسلامى تأثيراً كبيراً ، اذ اختط قنوات وعبد طرقا ، فظهرت معالمه فى كثير من أوجه النشاط الفكرية والسياسية ، ونلمح أثر ذلك فى الخطط التى وضعها الايرانيون لقيام اتحاد بين المسلمين الفارسيين واخوانهم الأتراك ، يعمل على انشاء رباط ثورى بين كل المسلمين ، سواء أكانوا يعيشون فى مستعمرات انجليزية أو فرنسية أو ايطالية أو ألمانية أو هولندية أو غيرها •

فى يناير سنة ١٩١٨ م كونت موسكو « لجنة اسلامية » (مجلس

أعلى للشئون الاسلامية) أولتها الحكومة السوفييتية رعاية خاصة ، فمنحتها الحماية ودعمتها ماليا • حصرت هذه اللجنة مهمتها فى بادىء الأمر فى شئون المسلمين داخل حدود الاتحاد السوفييتى ، ولكن سمح لها فيما بعد بتوسيع دائرة اختصاصها لتشمل المسلمين فى أرمينية ، فأصبحت أو شعرت أنها مسئولة عن تيسير شئون الدين الاسلامى فى هذه المنطقة ، وبهذا تدخلت هيئة سوفييتية لأول مرة دون مواراة أو مداراة فى مسائل تتعلق بشئون اقليم يقع خارج حدود الاتحاد السوفييتى •

وقد دعت هذه اللجنة المركزية الاسلامية الى عقد مؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩١٨ م ، وكان الهدف الأساسى من وراء عقده أن تتوصل الدعاية السوفييتية الى انشاء تنظيمات « خلايا » لها فى العالم الاسلامى ، ففى أثناء انعقاد المؤتمر تكونت « رابطة تحرير الشرق » ، وصيغ برنامج عملها فى مذكرات تحت عنوان « الشرق والثورة » •

ويشير الحديث فى هذه المذكرة الى توضيح منهجى للسياسة السوفييتية فى الهند وفارس والصين، وفيه أيضاً فقرة قرظت الوحدة الاسلامية التى انتكست أثناء الحرب انتكاساً مريراً ، وقضى عليها نهائياً بهزيمة الدولة التركية الكبرى ، فالفقرة غنية فى أسلوبها وكلماتها بالتعبير عن الموقف الروسى تجاه العالم الاسلامى ، اذ جاء فيها : « كانت الوحدة الاسلامية فى جوهرها حركة دينية وطنية فالاسلام دين سياسى ، كان له دور لا يستهان به فى توجيه أجهزة الدولة السياسية ، فقد كانت حياة المسلمين الدينية ايجابية فى المجتمع تخللها الفكر المناضل السياسى • ولهذا تستطيع الوحدة الاسلامية أن تقوم بنشاطها مرة أخرى كحركة دينية استعادت هيئتها وهيبتها ، وتقف للنضال ضد الاستعمار الغربى فتعقد تحالفاً بناء مع روسيا الجديدة التى تناضل فى نفس الميدان » •

ودب النشاط فى « رابطة تحرير الشرق » ، فأسست فى عام ١٩٢٠ م مدرسة عليا فى طشقند — لتدريب القادة — لتخريج الطلائع

الثورية فى الشرق • ففى هذه المدرسة يدرب حملة سياسة البلشفيين ويتعلمون كل لغات الشرق ، ثم يرسلون الى كل اتجاهات ومراكز المناطق الغربية لآسيا ، كى يضعوا أسس ترابط السوفييت مع الشعوب التى دبت فيها حركة الثورة •

* * *

انقضت مرحلة الوعود وتبعتها مرحلة التنفيذ ، ففى أوائل خريف عام ١٩٢٠ م دعت الحكومة السوفييتية الى عقد مؤتمر عالمى لشعوب الشرق فى باكو ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٠٠ عضواً من كل بلاد العالم الاسلامى ، ولبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضوا •

ولكن أدركت لندن — بعد برهة — خطر سياسة البلشفيين تجاه الشرق فبذلت كل ما فى وسعها ، واتخذت كل الاجراءات لمنع المدعوين من بلاد الشرقين الأدنى والأوسط ، وكذلك المدعوين من الهند من حضور مؤتمر باكو ، فقد ألقى القبض عليهم فى الهند وفى الميناء الفارسى « Enseli » ووضعت قنابل فى السفينة التى سيسافر عليها الوفد الفارسى ليمنعوها من مواصلة السير ، وفى بلاد ما بين النهرين رفضت السلطات اعطاء تأشيرات خروج لهم ، ومثل العراق فى المؤتمر أعضاء « رابطة العراق » ، التى تتخذ مقرها فى دمشق خارج حدود منطقة النفوذ البريطانى •

ظهر فى المؤتمر — لأول مرة — ضعف سياسة البلشفيين تجاه الشرق ، فقد انقسم الشرقيون الى مجموعتين ، تواجه احداهما الأخرى : مجموعة شيوعية ترى أن التمهيد للثورات الوطنية فى الشرق الاسلامى يمثل مرحلة على الطريق الى الثورة الاشتراكية ، أما المجموعة الثانية فترحب باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية وتأييدهم لحركات التحرير فى الشرق ، وفيما عدا هذا يجب أن تبتعد عن الأفكار الثورية الاشتراكية التى تطبقها روسيا داخل أقاليمها • وليس الصديق الروسى الكبير بالنسبة لهؤلاء أكثر من صديق كفء ضد القوى الاستعمارية الأوروبية ، وضد جيوشها الجاثمة على أنفاس شعوب المنطقة ، ويعترفون بالسياسة

التى تساعدهم على الدفاع عن الحرية والاستقلال ، أو الحصـــول عليها •

تضاربت الآراء وتصارعت فى المؤتمر ؛ فذهب أنور باشـــا الذى مثل تركيا فى المؤتمر الى أن الأتراك يعتبرون كل من يقف ضـــد انجلترا بلشـــفيا ، ورفضت فكرة المقارنة بين الاسلام والاشتراكية التى أعلنها الشيوعيون فى موسكو على المؤتمر : « كما أن الاســـلام يدعو الى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى الذى يدعو الى المساواة ، فهو يشبه النظام الاسلامى » • كان لرفض المسلمين المشتركين فى المؤتمر لهذا التحليل رفضاً باتاً أثر على السياسة البلشفية تجاه الشرق على مدى سنوات طويلة ؛ اذ جمدها وأعاقها عن الوصول الى أهدافها الأصلية ، التى أرادها الشيوعيون يوم ولوا وجوههم شطر الشرق لاشعال الثورة فيه ضد القوى الأوروبية ، الا أنها ـــ أى السياسة البلشفية ـــ تسببت فى حدوث تغييرات فى الشرق الاســـلامى ، ودفعت القوى العظمى الغربية الى تعديل سياستها ، كما كانت عاملا مهما للنمو السياسى فى العالم الاسلامى •

لم تكن هناك الافتراضـــات الاجتماعية الســـابقة لقيام الثورة الاشتراكية التى أرادت موسكو التمهيد لها ، كى تضرب الغرب فى هذا الميدان ضربة قاضية ، فلم يجد السوفييت فى هذه المنطقة شيئا آخر غير بلاد زراعية متخلفة ليس فيها الجماهير الشعبية التى تتجاوب مع المبادىء الثورية الاشتراكية ، ويضاف الى ذلك أن قادة الثوار الوطنيين الذين يصولون ويجولون فى العالم الاسلامى ويلقون الدعم من الاتحـــاد السوفييتى كانوا أبعد عن الثورية الاشتراكية الروسية من العامة ، الذين تتحكم فيهم العادات والتقاليد المحافظة ، ويقعون تحت تأثير قوى لتعاليم الدين الاسلامى •

ان ما يبحث عنه الوطنيون الشرقيون لدى روسيا هو السلاح ، والمساعدات العسكرية ، والموقف الدبلوماسى ضد القوى الغربية ،

وتظهر موسكو استعدادا لتقديم هذا كله ، لأن النضال الوطنى الـذى تقوده شعوب الاسلام ، هو ثورى فى رأى السوفييت ، فقد مزق أوصال الاستعمار الغربى الذى هو العدو الرئيسى لموسكو وأضاع هيبته • قال ستالين ذات مرة ــ « انه يعتبر النضال العالمى الذى تقوده المجموعة الشيوعية الثانية [1] كفاحا رجعيا ، بينما يرى أن كفاح الوطنيين المسلمين ثوريا » • ولم يلتفت الى الحقيقة الماثلة أمام المراقبين ، وهى أن معظم زعماء الحركات الوطنية فى العالم الاسلامى من الأوسـاط المحافظة ومن الطبقات الشعبية ، فهم يمثلون العناصر التقليدية فى المجتمع الشرقى ، لكنه اعتقد أن كفاح الاستقلال الوطنى الذى اندلع فى العالم الاسلامى وانتشر على جبهة عريضـة يشترك مع النضـال الثورى الاشتراكى ــ الذى تقوده موسكو ــ فى مواجهة الاستعمار الغربى •

* * *

ظهرت آثار مسـاعدة موسـكو الايجابية بادىء ذى بـدء فى أفغانستان ، وأحدثت هناك حرجا كبيرا لانجلترا ، لأن أفغانستان تخضع كلية للتبعية الانجليزية • فقد هزت الدعاية البلشـفية موقف الأمـير حبيب الله صديق انجلترا المخلص ، اذ طعنته بأنه آلة فى يد الساسـة البريطانيين ، اشتروه بثمن بخس وبمساعدة روسيا المـادية ، وعن طريق العملاء الشيوعيين أسست « حركة الاستقلال الوطنى الأفغانية » وظهر على رأسها أخو الأمير • ولم يمض وقت طويل على هـذا حتى اغتيل الأمير ، صديق انجلترا ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور ، وتدفقت الأسلحة الروسية الى داخل البلد ، وفى صيف عام ١٩١٩ م

---

(١) كانت الدعوة العالمية الأولى بقيادة «ماركس» وانفصلت عنها المجموعة الثانية بسبب الخلافات بينه وبين « Bakunin » وفى عام ١٨٨٩م اسست العالمية الثانية بايعاز من الاشتراكيين الديمقراطيين فى المانيا واتخذت باريس مقرا لها ، ثم انهارت فى الحرب العالمية الأولى ، واعيد تكوينهـا فى عام ١٩٢٣ م واتخذت بروكسل مقرا لها واستمرت فى نشاطها حتى عام ١٩٤٠ م (انظر : DTV - Lexikon تحت كلمة : Internationale) (م.ش) •

بدأ النزاع على الحدود الأفغانية الهندية ، والقى الجيش الانجليزى الذى أنهكته الحروب ، وقضت الأوبئة والأمراض على كثير من أفراد .. لقى هذا الجيش صفعة قاسية فيما تلا ذلك من نضال ، مما اضطرت معه الحكومة الانجليزية الى قبول صلح « روالبندى » الذى وقع فى ٨ أغسطس من نفس العام ، وصبرت انجلترا — مكرهة غير راضية — على أول هزيمة دبيلوماسية بعد الحرب فى الشرق الاسلامى ، فى حين انتصرت المساعدة الروسية ، ذلك أن انجلترا تنازلت عن تمثيل أفغانستان فى السياسة الخارجية ، وسمحت — ناقضة بذلك المعاهدات السابقة — بدخول الأسلحة والذخيرة الى أفغانستان ، ووافقت على قيام المملكة الأفغانية المستقلة فى أمورها الداخلية والخارجية ، فلها الحرية الكاملة فى اتخاذ ما تراه فى المسائل الوطنية والدولية .وتتمة لهذه المعاهدات وقعت فى نوفمبر سنة ١٩٢١ م معاهدة أفغانية انجليزية فى كابول ، نصت على انهاء الوصاية الانجليزية على أفغانستان كاملا .

تبع هذا التسليم المنتزع من انجلترا مباشرة بيان روسى جاء فيه أن مجلس مديرى ادارات الشعب [1] يعلن : أن حكومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة — ابتداء من الآن — واجب التحالف مع روسيا ، لمساعدة شعوب الشرق الاسلامى التى لا زالت ترزح تحت نير العبودية لتنال حريتها الوطنية والاجتماعية ، وهكذا تعود مرة أخرى فى البيان نغمة الثورة الاشتراكية التى تتخذها موسكو نموذجا يحتذى .

توطدت الصداقة الروسية الأفغانية وازدادت التحاما عاما بعد عام ، وتحقق التحالف الذى طالت به حكومة العمال والفلاحين فى المعاهدة الروسية الأفغانية التى وقعت فى فبراير عام ١٩٢١ م

وقد نص فيها : على أن الطرفين المتعاقدين التزما بألا يعقد أحدهما

---

(١) هو اسم اطلق على المجلس التنفيذى فى الدولة من ١٩١٧ حتى ١٩٤٦م ثم تغير الاسم الى مجلس الوزراء (انظر : DTV - Lexikon) تحت كلمة : Rat der Volkskommissare (م . ش) .

مع قوة ثالثة معاهدة تضر بمصالح الطرف الآخر ، ويدعم التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين تدعيما كبيراً ، فتحصل روسيا على حق اقامة خمس قنصليات فى أفغانستان بجانب سفارتها فى كابول — أريد بهذا العدد من القنصليات تطوير وتركيز النفوذ السوفييتى — ومن ناحية أخرى تتعهد موسكو بتقديم مساعدة مالية لأفغانستان ،يلغ قيمتها مليون روبل من الذهب سنويا ، وهو يوازى ما كانت تدفعه انجلترا للأمير قبل وأثناء الحرب ، وامتنعت عن دفعه منذ توقيع صلح « رواليندى » •

وفيما يتعلق بمسائل الحدود الروسية الأفغانية ، أبدت روسيا سعة أفق ورحابة صدر ، فأعلنت استعدادها للتنازل عن مناطق الحدود التى ضمت فى عهد القيصر الى بخارى وروسيا واعطائها لأفغانستان • وفى مقابل هذا التزمت أفغانستان أن توجه حركة مواصلاتها نحو الشمال ، فلم تبحث عن وصل خطوطها بشبكة الخطوط العالمية عبر الهند بل عبر روسيا •

لم تصل روسيا الى هدفها الحقيقى رغم توقيع هذه المعاهدة التى قوت مركزها فى أفغانستان وعمقته ، بقدر ما أضعفت مركز انجلترا هناك ••• لم تحقق روسيا هدفها الحقيقى ، ألا وهو قيام الثورة الاشتراكية ، لكن بدون شك أصبحت كابول — بتأثير المعاهدة الأفغانية الروسية — مركزا للدعاية الشيوعية ، غير أنها لم تجد لها طريقا فى الأقاليم الأفغانية بسبب معارضة الحكومة ويقظتها ، لذا لم تستطع الدعاية البلشفية اختراق المناطق الأفغانية ، بل تعدتها الى خارج الحدود ••• الى الهند ، ويتلقى حملة الدعاية الشيوعية فى الهند الأوامر من كابول ، فأصبحوا دمى يحركهم البلشفيون من داخل أفغانستان ، وهكذا بدا واضحا أن انجلترا لم تخسر مناطق فقط بتنازلها عن أفغانستان ، بل مكنت البلشفيين من اقامة مركز لهم فى هذا البلد تنطلق منه سموم دعاية شيوعية أقضت مضجع انجلترا فى الهند ، وتهددها بالخطر حتى اليوم •

* * *

كان التزام روسيا بمساعدة الحكومة الوطنية فى فارس على تثبيت مركزها وتمكين سلطانها أهم وأبعد أثراً مما حدث فى أفغانستان ، اذ يعتبر السوفييت المنطقة الفارسية ذات أهمية بالغة باعتبارها — من الناحية الجغرافية — مركز العالم الاسلامى فى غرب آسيا ، فهى تهم روسيا بنوع خاص ، نظراً لأن حدودها مع روسيا تمتد مسافة كبيرة ، ولأن وراءها تقع مناطق النفوذ الانجليزية فى الهند وفى العراق .

ففى بداية العلاقة الروسية الفارسية الجديدة حاولت روسيا — بد أن بلشفت منطقة بخارى — أن تطوى فارس أيضا بمساعدة الجيش الأحمر ، وقد قوبل دخول الجيش الأحمر فارس بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه مساعدا لهم ضد انجلترا ، وفهموا أنه صديق وحليف يقف معهم فى مواجهة الاستعمار الانجليزى ، ولكن عندما لاح فى الأفق أن هذه القوة المسلحة تحاول اشعال نار الثورة الاشتراكية ، أى بلشفة شمال فارس ، انتشرت معارضة هذا الاتجاه وتمت مقاومته ، وتحتم على روسيا أن تعى درسا مرةأخرى يبصرها بأن البلد الزراعى المتخلف الذى يتحكم فيه جمود الفكر الدينى [1] ، لا يمكن أن يكون حقلا لمثل هذه الأيديولوجية « العلمية » وقد سلم بهذه الحقيقة فـورا ففى عام ١٩٢٠ م — أى فى الوقت الذى لم يزل فيه الجيش الأحمر مرابطا فى شمال فارس — كتبت صحيفة أزفستيا :

« ان من الضلال أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية ، فليس فى فارس عمال مصانع بل بلد زراعى متخلف ، ولا ينبغى أن نحاول هناك القيام بثورة لم توجد بعد الافتراضات المقدرة لقيامها ، ولم يهيأ الجو لمثل هذا العمل ، فنحن نحتاج الى صداقة فارس ، لأن وراء هذا البلد تمتد مناطق نفوذ انجلترا ، وازدياد النفوذ الروسى طبقا لهذا المفهوم يعنى بالنسبة لرأس المـال الانجليزى اجباره على مسالمتنا » .

---

(١) هذا تعبير الشيوعية الملحدة عن اصالة الفكر الدينى (م.ش) .

بعد أن فشلت محاولة اشعال نار الثورة الاشتراكية في فارس — يرجع فشلها الى وجود الظروف غير الملائمة ، والى مقاومة الفرق القوقازية بقيادة رضا خان الذى أصبح الشاه فيما بعد — اكتفت موسكو بتقديم المساعدات الدبلوماسية والأدبية والاقتصادية للثوار الفارسيين ليناضلوا ضد انجلترا التى تبسط سلطانها الاستعمارى على المنطقة ، وهكذا أصبحت موسكو فى فارس — كما فى تركيا وأفغانستان — السند القوى للدولة الجديدة التى أسسها رضا خان وجنوده القوقازيون بعد الانقلاب الذى قاموا به فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ م .

وعلى درب هذا الاتجاه الجديد لروسيا قررت موسكو بعد مضى وقت قصير من وقوع الانقلاب — وبالذات فى نفس الشهر فبراير سنة ١٩٢١ م — عقد معاهدة مع فارس تضمن للدولة الجديدة أسسا جوهرية يرتكز عليها بناؤها الحديث ، اذ تنازلت فيها الحكومة الروسية — كما جاء فى البيان الرسمى الروسى الذى صدر من قبل موضحا أسس السياسة الروسية تجاه الشرق — عن جميع المخططات السابقة لغزو فارس ، وأعلنت الغاء كل المعاهدات التى عقدتها حكومة القيصر مع هذا البلد ، كما تنازلت عن الحق الذى أعطتها اياه المعاهدات الانجليزية الروسية المعقودة فى عام ١٩٠٧ م ، والتى قسمت فارس الى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية ، وتجاوزت التنازلات هذا الحد ، فوهبت موسكو فارس ما عليها من ديون لروسيا ، وتنازلت عن كل الحقوق الخاصة لمواطنى الدولة الروسية فى فارس ، اذا ألغت كل الاجراءات التى تعطى للمواطنين الروس الذين يعيشون هناك امتيازات أجنبية ، كما تنازلت عن الحقوق الأخرى التى اكتسبتها بموجب تسليم فارس فى الحرب ، وطالبت الحكام الجدد بالعمل على الغاء الامتيازات الأجنبية بالنسبة لرعايا القوى الغربية دون الالتفات الى معارضتهم أو الاستماع الى رغباتهم ، فلهم — أى حكام فارس الجدد — السلطة التامة والسيادة الكاملة فى دولتهم .

وآلت كل طرق المواصلات التى أنشأتها روسيا القيصرية فى شمال

فارس ، بناء على تصريح من الحكومة الفارسية ... آلت الى الدولة الفارسية ، فأصبح لها الحق فى بناء أسطول فى بحر قزوين ، وزيادة على هذا ، فقد التزمت روسيا بتقديم المساعدات العسكرية لفارس ، اذا غادر جيش القوة الأجنبية فارس — المقصود بالقوة الأجنبية هنا انجلترا — ووعدت موسكو بسحب قواتها التى أرسلت للمساعدة ، اذا زال الخطر الذى يهدد الدولة الجديدة • وكان أكثر بنود المعاهدة شأنا وأبعدها اثارة تلك التى وجهت — بشكل واضح — ضد القوى الاستعمارية ، وكذلك التى تعبر عن صداقة روسيا للعالم الاسلامى ، وتدعو الى خلق جبهة واحدة للعمل المشترك ضد الاستعمار الغربى ، ومما جاء فيها : « تنبذ الحكومة السوفييتية سياسة حكومة القيصر وتمقتها ، تلك السياسة التى أدت الى عقد معاهدات مع القوى الأوروبية لتسلب الشعوب الشرقية حريتها وتقضى على استقلالها ، وتستهدف فى الوقت نفسه تقوية البلاد التى كانت أطراف تلك المعاهدات ، فالسياسة الاجرامية التى بواسطتها أصبحت أمم الشرق غنيمة لارواء غليل شهوة الأمم الأوروبية المستغلة التى لا تشبع ، هذه السياسة تمجها الحكومة السوفييتية وتنبذها ... واتفاقا مع هذا تعلن الحكومة السوفييتية رفضها الشكلى للمشاركة فى أى عمل يهدف الى ضعف فارس أو يؤثر على حريتها الوطنية » •

اعتمدت فارس على السند الروسى الذى أبدته موسكو فى صياغة المعاهدة ، فأنذرت الحكومة الوطنية فى فارس — بعد توقيع المعاهدة الفارسية الروسية مباشرة — بالغاء المعاهدة الفارسية الانجليزية التى عقدت فى ١٩١٩ م والتى استهدفت انجلترا من ورائها ممارسة الرقابة الكاملة على بلد القاجاريين •

ان المعاهدة الروسية الفارسية وثيقة ذات طابع خاص ، اذ كانت من أوضح الأدلة على سعة أفق الشيوعيين ورحابة صدورهم فى توجيه السياسة البلشفية تجاه الشرق ، فقد دلت هنا دلالة واضحة على هدف أسلوب التنازل الحر — بدون ضغط الحركات الوطنية — وغاية الالتزام

بتقديم مساعدات من تلقاء أنفسهم ، اذ كان الغرض من ذلك تقوية الميل الى الاكتفاء الذاتى ، ودعم الوعى الوطنى لدى الشعوب الاسلامية والمناورة بهذا فى جبهة روسية ضد القوى الغربية الاستعمارية ، التى لا زالت حتى اليوم تسعى — وتجد فى السعى — الى تحقيق أهداف استعمارية فى المنطقة الاسلامية • وفى نفس الوقت أملت موسكو فى قيام حزام من الدول الصديقة التى تتفق معها فى الآراء حول المسائل الدولية على الحدود الروسية — لتحميها — التى تتصل بمناطق السلطة الانجليزية • وقد حققت السياسة الروسية هذا الهدف فى فارس ، ولكنها لم تصل الى تحقيق قيام الثورة الاشتراكية هناك على الرغم من أن موسكو حاولت — ولا زالت — بعد عقد المعاهدة أن تتجاوز موقف المساعد فى المسائل السياسية والعسكرية ، وكان أداة هذه المحاولة رئيس الوزراء ضياء الدين — الذى عين بعد الانقلاب العسكرى — فقد أثبت للسوفييت أنه الرجل الاشتراكى المتطرف ، وأنه يعمل على نقل ملكية الاقطاعيات الكبيرة الى الدولة ، حين أمر باعتقال عدد من الأرستقراطيين والاقطاعيين ؛ كى يجبرهم على الموافقة على تأميم أملاكهم ، ولكن المقاومة ضد هذه الأفكار التى خرجت من مدرسة موسكو نمت بسرعة واشتدت ، فأظهرت أن قائد الانقلاب ، رضا خان ، قد نفر من العلمانيين أصحاب المبادىء الثورية الاشتراكية واعتبرهم خطراً على تحقيق الآمال الوطنية ، لذلك عزل رئيس وزرائه واتخذ اجراءات ضده فهرب — أى رئيس الوزراء المعزول — خارج البلاد • ومنذ ذلك الوقت يتعقب رضا خان — حتى فيما بعد ، عندما أصبح ملكا على فارس — كل المحاولات اليسارية التى تساعد أصدقاء البلشفيين على قيام ثورة اشتراكية بأسلوب لا هوادة فيه رغم صداقته لروسيا ، وبات من الواضح لكل أحد أن الدولة الفارسية — وكذلك تركيا — تعتبر الشيوعيين أعداء الدولة ، وأن الدولة جادة فى تعقبهم وكبح جماحهم •

* * *

تراءت السياسة السوفييتية فى سعيها لتوطيد العلاقة مع تركيا أنها

تسير نحو هدف مماثل — كما فى ايران — فقد قربت علاقة الصداقة الأولى المسافة بين تركيا وروسيا ، وظلت هى الفيصل — ولا شىء غيرها — فى توجيه كلتا الدولتين نحو بعضهما ، ففى صيف عام ١٩٢٠ م زار أنور باشا موسكو للتفاوض مع الشيوعيين هناك بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيا الحديثة ، التى تقف فى الميدان ضد انجلترا وفرنسا وحلفائهما ، ثم كتب عن نجاح هذه الرحلة التى أطلق عليها بعضهم رحلة الحج الى موسكو ما يلى : « لقد توجت الرحلة الى موسكو بنجاح لم ننتظره ، اذ تعمقت جذور الصداقة بيننا وبين روسيا ، فالمدافع قد عبئت بالذخيرة وتوشك أن تنطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية سلطة الاستعمار الانجليزى فى آسيا وفى مصر • وحق للعالم الاسلامى أن يرفع رأسه — معتمداً على روسيا — كى يتخلص من العبودية الانجليزية ، وربما يحتاج الوصول الى هذا الهدف الى خمس عشرة سنة ، ولكن هذا لزمن يعتبر فى حساب التاريخ مدة قصيرة لا تلبث أن تنتهى بسرعة ••••» • وبعد مدة قصيرة — وبالضبط بعد مرور خمسة عشر عاما على تنبؤ أنور باشا بهذه النبوءة — اضطرت انجلترا أن تطرق باب أنقرة ، لتبحث هناك عن حليف لها ضد أعدائها من الدول الغربية الذين يهددون مصالحها •

وصلت الصداقة السوفيتية لتركية فى عام ١٩٢٠ م الى الحد الذى عرضت فيه موسكو على كمال أتاتورك — وكان يحارب آنذاك فى جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة — أن ترسل له قوات روسية لمساعدته ، ولكنه — لحرصه الشديد — رفض هذا العرض • ورغم هذا أثر العطف الروسى على تركيا ومساندتها بالأسلحة والذخيرة تأثيراً جوهرياً فى انتصار الوطنيين الأتراك على أعدائهم الاستعماريين • وأثناء تعقب الأرمينيين كانت القوات الروسية والتركية تحارب فى جبهة مشتركة ، وزاد الاتصال بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواسطة المعاهدة التى عقدت فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ ، والتى قررت مصير أرمينية بتقسيمها بين تركيا وروسيا •

هناك وجه شبه بين هذه المعاهدة وبين المعاهدة الروسية الفارسية التى عقدت فى فبراير سنة ١٩٢١ م ، اذ يطالع المرء حرفياً فى نصوص هذه المعاهدة : « تقر الدولتان المتعاقدتان بأن النضال الوطنى من أجل الحرية يتفق — فى أهدافه — مع نضال الطبقة العاملة فى روسيا من أجل النظام الاشتراكى ، ويعلنان تأكيد حق الشعوب الاسلامية فى الحرية والاستقلال ، وفى اتباع نظام الحكم الذى يحقق رغباتهم » ، ثم تناولت الوثيقة حديثا عن تنازلات روسيا — بالضبط كما جاء فى المعاهدة الروسية الفارسية — : الغاء حقوق الدولة الروسية التى آلت اليها فى عهد القيصر ، والتنازل عنها لتركيا مع الاحتفاظ بحق حل مسائل المرور فى المضايق المائية فى مؤتمر دولى • ولعبت روسيا هنا — كما فى ايران — دوراً كبيراً عندما هدد الأعداء من الداخل والخارج دولة تركيا الحديثة ، واضطرت الحكومة الى خوض معركة مصيرية ضدهم ، اذ وقفت موسكو خلفها : فساندتها مادياً وأدبياً مساندة جوهرية أدت الى نصر تركيا — الذى هو فى الوقت نفسه نصر للشرق — على القوى الغربية •

لم تنقطع الصداقة الروسية التركية التى نشأت فى أول عهد تركيا الحديثة ، ولم يعتريها الوهن رغم موقف الحكومة من الحزب الشيوعى التركى ، ففى بداية عهد هذه الصداقة حاولت روسيا — رغم قيام معاهدة مارس سنة ١٩٢١ م — اضرام نار الحركة الشيوعية داخل تركيا ، اذ كلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعى التركى ، وقدمت لهم موسكو مساعدات مالية كبيرة • غير أن الحقيقة تراءت لعيونهم بسرعة ، وعلمتهم التجربة أن الفلاحين الأتراك محافظون يتمسكون بالتقاليد تمسكا لا يسمح لهم بالتجاوب مع شعارات الثورة الاشتراكية القادمة من موسكو ، وأبعد منهم عن التأثر بهذه الشعارات ، وأقل تجاوبا معها هؤلاء الرجال الذين قامت على أكتافهم تركيا الحديثة ، وناضلوا فى سبيلها نضالا مميتا ، فهم — كما قال زعيمهم مصطفى كمال — ضباط ينحدر معظمهم من أوساط شعبية ، لذا يتجه تفكيرهم كله نحو تدعيم

الطاقات الوطنية التى يقوم عليها بناء القومية التركية ، فى حين يشكون كثيرا فى علمانية الثورة الاشتراكية ، ويرونها خطرا على الدولة • زاد هذا الموقف حدة العداوة ضد الشيوعيين — رغم الصداقة المتينة مع موسكو — ودفع الحكومة الى تعقبهم ، كلما لاح نشاطهم فى الأفق داخل حدود الدولة التركية ، فالشيوعى هو عدو الدولة اللدود •

ولكن لم يمنع هـذا الموقف — موقف الحكـومة التركيـة مع الشيوعيين — من أن تظل روسيا — بواسطة الصداقة الروسية التركية المتينة — السند الاقتصادى القوى المقدم على غيره ، وأن تقدم الخبرات العلمية والمدربين والسلاح للجيش التركى • وما فتئت تدافع عن المصالح التركية فى مناورات النزاع العالمى ، وأوضح دليل على ذلك ما قامت به روسيا فى « مونترو » أيام انعقاد مؤتمر المضايق المـائية ، اذ استطاعت تركيا — بفضل مسـاعدة روسيا — أن تستعيد حق ممارسة سيادتها على مضيقى الدردنيل والبوسفور ، كذلك لم يهتز الترابط الروسى التركى أيضا ؛ ولم يفتر بسبب التقارب التركى الانجليزى ، الذى حتمه التوسع الايطالى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، اذ لا زالت تقف تركيا حتى الآن — كما كانت تقف من قبل — فى الميدان الذى خلقته موسكو فى الشرق الاسلامى ضد الاستعمار الغربى •

* * *

لعبت موسكو دورا مهما فى سوق حركات التحرر الوطنى فى أجزاء بعيدة عن حدودها فى الشرق الاسلامى ، اذ يمثل تأثيرها دور من يمسك السوط أو المقرعة ليسوق بها قطيعه الى الهدف الذى يريده — وذلك حيث بدا للقوى الاستعمارية الأوروبية بعد نهاية الحرب أنها قاربت بلوغ تحقيق أهدافها فى بناء مستعمرات لا تخرج منها أبدا — فقد ألقت موسكو بثقلها فى هذه المناطق ، كى تزحزح أقدام المستعمرين عن الأرض ، التى تمكن فيها سلطانهم ، وأباح لهم استعباد رقاب أهلها واستنزاف ثرواتها وطمس ماضيها القديم بحضارته وتاريخه ، والحيلولة دون التطلع الى المستقبل واختيار النظم التى تضمن لهم سيادة لا يشوبها

استعباد أو فقر وحرمان .. ولا زالت موسكو تلعب هذا الدور فى أجزاء العالم الاسلامى الذى لم تصل فيها قضية الحرية الوطنية الى نهايتها ، فلم تزل معاركها دائرة فى تلك البلاد الواقعة تحت الانتداب الأجنبى فى غرب آسيا : فلسطين وسوريا وفى غرب افريقيا حيث مناطق النفوذ الفرنسى والانجليزى .

فى هذه المناطق .. فى جبهات النضال ، حيث لم يزل النزاع بين الشرق والغرب يتخذ طابع الكفاح المسلح ، يستطيع المرء أن يلاحظ بالضبط ، كيف يتعرف البلشفيون على الجبهة المعادية للغرب التى تجتاح الشرق متجاوزة حدود منطقة المصير الاسلامى ، وكيف تسعى موسكو سعيا حثيثا الى اقامة ترابط بين حركات التجديد والاصلاح الوطنية وبين الحركات الاشتراكية ، ودائما حيث تضطر السياسة الرسمية للاتحاد السوفييتى الى التحفظ — فانه مهما كان الأمر فارتباط الاتحاد السوفييتى بتلك القوى التى يعمل على اضعاف مركزها فى الشرق برباط صداقة أو برباط تحالف — يجوز « لعملائه الشيوعيين غير الروسيين » أن يتحركوا ، بحرية ، ودون توقف ، فليسوا مكلفين بمراعاة حساسية الموقف بين موسكو والدول الأخرى ، وهم وان كانوا يتحركون طبقاً لأوامر روسيا وبمساعدتها فلا تحدث أعمالهم خطرا مباشرا على علاقات موسكو الدولية ، ويتصرف هؤلاء حسب الطريقة القديمة : يحاول المرء عن طريق المشاجرة مع الاستعمار أن يهز أرض الشعوب الاسلامية ويلينها ويحدث بها شقوقا ، وفى هذه الشقوق توضع بذور الثورة الاشتراكية .

اتخذت موسكو هذه الطريقة أسلوب عمل لها فى شمال افريقيا ، ونجحت نجاحاً له وزنه وقيمته ، ليس فقط فى المجال السياسى ، بل تقدمت أيضاً خطوات واسعة فى أرساء مقدمات الغليان الاشتراكى ، ففى الوقت الذى كانت فيه حكومة الجبهة الوطنية [1] تقود الأمور

---

(١) حكومة ائتلافية ألفها «Leon Blum» من الاشتراكيين المتطرفين والشيوعيين فى فرنسا ٣٥ — ١٩٣٦ وعرفت تحت اسم Frenf lolulaiie (م . ش) .

بتكاسل وتراخ فى باريس ، استطاع عملاء السوفييت فى الجزائر وتونس أن ينظموا فرقهم وخلاياهم دون أن يعوقهم شىء ، وسهل لهم ذلك سوء الحالة الاقتصادية ، اذ فى مثل هذه الظروف — مضافا اليها قلة التشريعات الاجتماعية — نال رسل الشيوعية العالمية نجاحا لا بأس به ، وحاول الشيوعيون أن يتجاوبوا مع الجو المحيط بهم — كى لا يظهر كنغمة شاذة — فمارسوا نشاطهم كقوميين عرب ، وسهل لهم مساعدوهم الفرنسيون (ربما كان المقصود بهم الشيوعيون الذين اشتركوا فى حكومة الجبهة الوطنية فى فرنسا) قيام حركة « الاستقلال عن فرنسا » ، ليس على أساس تحقيق هدف سياسى ، بل استجابة لخدمة أهداف خاصة ، لأنهم — أى الشيوعيين فى شمال أفريقيا — يعلمون أن المرء يستطيع بهذه الطريقة — وهى الدعوة الى الاستقلال عن فرنسا باسم القومية — أن يخاطب العربى الوطنى — الذى تتحكم فيه هنا بالذات، روح الاسلام ويتعصب لتعاليمه تعصبا لا يعرف المرونة ولا يميل الى المهادنة مع أعدائه — بأسلوب يؤثر فيه لأنه ينظر الى الشيوعى الملحد على أنه رجس ودنس ، ويحول الموقف الاسلامى المتزمت بين مجرد التقارب بين العرب وبين الشيوعيين ، فالعرب ينبذون الشيوعية المطبوعة فى موسكو لأنها تنكر وجود الله ، وتعمل على تخريب بناء الأسرة والقضاء على السيادة الأبوية المطلقة ، وهكذا يبدو عند الملاحظة الدقيقة أن صفوف الشيوعيين لا تضم سوى نسبة ضئيلة جداً من العرب المسلمين أو من البربر ، ففى تونس على سبيل المثال يمثل اليهود ما يقرب من نصف الشيوعيين ، ويتكون النصف الآخر من الفرنسيين والأسبان ، والباقى من المجدودين وهم العرب المنبوذون أى العاطلون الذين لا عمل لهم ولا يملكون شروى نقير .

لا تختلف الأوضاع — عن مثيلاتها فى شمال افريقيا — فى فلسطين ، اذ يبدو هذا البلد للسوفييت أيضاً مكانا مناسباً للقفز منه على البلاد الاسلامية المجاورة ، وليس هذا راجعاً فقط الى أن هذا البلد يخضع منذ نهاية الحرب لاجراءات المعاهدة السياسية ، التى جرت

عليه القلاقل وغمرته بموجات التوتر المتلاحقة ، بل أضيف الى هذا أن موسكو بخبرتها القديمة ، رأت فى اليهود الشرقيين الذين هاجروا الى فلسطين خامة بشرية تصلح لتلقى الأفكار الشيوعية ، فلديهم من الصفات ما لا يتعارض مع اعتناقها ونشر تعاليمها بين سكان هذه المنطقة •

أثرت الناحية الاقتصادية على تصعيد أعمال العنف بين العرب واليهود ، فطالما كان الجانب اليهودى ضعيفاً اقتصادياً ، ظل التوتر بينهم فاترا لم تظهر آثاره بشكل ملموس ، ولكن تغير هذا الوضع بهجرة اليهود الرأسماليين ، اذ انضم الى النزاع العنصرى نزاع اقتصادى ، وبهذا اشتعلت التناقضات العربية اليهودية ، وأصبحت مرئية للعالم كله ، ومنذ هذه اللحظة حاولت موسكو أن تكسب أيضاً أتباعا فى صفوف العرب،ولكن تصدت لها المشكلات القديمة••نعم بدا لها كما لو كان الفلاح العربى الفقير حقلا مناسباً لبذر بذور الاشتراكية أو انسانا يتصور اقتناعه بتعاليم الشيوعية ، لم يكن هذا سوى تخيلات فقط فالواقع أن عملاء موسكو لم يصادفوا آذانا صاغية ، اللهم الا حفنة قليلة لا وزن لها ••• لأن العرب يميلون الى التمسك بالدين ، سواء أكان ذلك ناشئاً من اليأس والقنوط المخيم عليهم فيلجأون الى الدين ، أو كان نتيجة فقرهم ؟ أو كلاهما — اليأس والفقر — يدفع من اللاشعور الى التمسك بالدين [1] وهذا الرباط المتين بتعاليم الاسلام — التى يوجهها ويشرحها التفكير اللاهوتى المتزمت — يتصدى لكل اغراءات موسكو ، فهو الرادع لها ، وعلى صخرته تتحطم محاولات الشيوعيين للنفوذ الى المجتمع الاسلامى •

وعندما زادت حدة النزاع بين العرب واليهود فى العشرين عاماً الأخيرة ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها فى فلسطين فى جناحين متباعدين : أحدهما يتخذ طريقه بين الطائفة اليهودية ، والآخر

---

(١) أن التمسك بالدين اساسا يقضى على اليأس والفقر ، واليائسون والفقراء الذين لا يعملون للقضاء على فقرهم ليسوا من المتدينين « **ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** » (يوسف : ٨٧) « **فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** » (الجمعة : ١٠) (م.ش) .

بين العرب ، وكلفت موسكو اليهودى الذى يدعى « Schelesnik » بتأسيس الحزب الشيوعى الفلسطينى ، وسار النشاط فى هذا الحزب فى فرعين منفصلين فصلا تاما — الفرع اليهودى والفرع العربى — وبشعارات مختلفة ، فعند اليهود كانت الشعارات الاشتراكية ، وعند العرب شعارات التحرر الوطنى .

لم يكن الحزب الشيوعى الفلسطينى ذا وزن من ناحية العدد ، ولكن أتباعه كانوا شعلة نشاط ، وكانت يد موسكو هى المحرك الأول فى فرعى الحزب اليهودى والعربى ، وانضمت التنظيمات السورية الى الحزب الفلسطينى ، تلك التنظيمات التى قامت وتطورت دون عائق فى فترة تحالف الاشتراكيين مع الشيوعيين فى باريس — حينما كونوا الجبهة الوطنية — ، وظلت قوى الانتداب — انجلترا وفرنسا — مدة طويلة تنظر الى تحركات الشيوعيين فى مناطق الانتداب فى غرب آسيا دون أن تتخذ شيئا ضدهم ، ولم تتحرك الا فى شتاء ٣٦ — ١٩٣٧ م عندما اقتنعت لندن بخطر السوس الشيوعى الذى ينخر فى عظام شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، واتفقت مع ادارة الانتداب الفرنسى فى سوريا على التعاون فى اتخاذ اجراءا تدفاعية ضد الشيوعيين .

* * *

خططت موسكو سياسة ربط الثورة الوطنية بالثورة الاشتراكية ، وعلقت أملا كبيراً على التقاء الوطنيين بالشيوعيين فى العالم الاسلامى ، واعتبرت ذلك نهاية سعيدة وخطيرة لسياستها تجاه الشرق ، ولكن لم يتحقق هذا الهدف فى أى جزء من أجزاء العالم الاسلامى ، فقد ظل توجيه العلاقات السياسية بين الحكومات الوطنية فى الشرق الاسلامى — بعد فترة العواصف والاثارة فى سنى ما بعد الحرب — يتقرر فى جو من التروى والتبصر طبقا للأهداف السياسة المعتدلة . وتتابع عقد المعاهدات — معاهدات الصداقة ، والحياد ، وعدم الاعتداء ، وهيئات التحكيم والتحالف — ينقطع مفعوله — ويتكرر ذلك مرارا — عند صخرة تبادل النفوذ فى المسائل الداخلية للمتعاقدين ، ففى كل من

تركيا وايران تستغل المعاهدات المعقودة مع روسيا استغلالا وفيرا ، وتستخدم مفاهيمها على نطاق واسع ، ومع ذلك تعتبر الشيوعية حركة معادية للدولة ، اذ تحرمها قوانينها وتعاقب كل من يزاول نشاطها ، فمن يعتنق المبدأ الشيوعى ، ويعمل على نشره داخل الدولة ويدافع عنه نزل به عقاب صارم لا هوادة فيه ولا مسامحة • ويبدو أن هذا الموقف قائم على أسس معقولة ، وله ظروف ساعدت على تدعيمه وضمنت استمراره ، فالدعاية الشيوعية التى صادفت فى سنى ما بعد الحرب فراغا فى العالم الاسلامى — يرجع الفضل فى ذلك الى طبيعة تكوين النظم الاجتماعية لدى شعوب الشرق — سوف تطفو على السطح ويعظم خطرها كلما قطع الشرق مراحل أكثر على طريق التصنيع ، فاذا لاح للشيوعية أن الفرصة قد هيئت — وتهيئتها يكون بوجود طبقة عمالية — انطلقت الحناجر تردد المطالب الاشتراكية فتسرى المبادىء والشعارات الثورية الشيوعية فى القنوات التى كانت قبل مغلقة ويتلقفها الجيل التالى لمن رفضها • • •

أما اليوم فتكتفى روسيا بعقد معاهداتها مع زعماء الاقطاع والأمراء ومن ظهروا على مسرح السياسة مع الثوريين الوطنيين ، لتخفى وجهها الحقيقى فهذه الطبقة ترفض مبادىء الثورة الشيوعية رفضا باتا ، وتحاربها محاربة عنيفة لأنها تعتبر الرأسمالية الأوروبية نموذجا يجب اتباعه فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يأخذ تغيير الشرق طريقه من النظام الاقطاعى الى النظام الشيوعى اطلاقا ، بل الى نظام الاقتصاد الرأسمالى ذى الطابع الغربى ، فوضع الشرق الاسلامى فى مركز مواجهة لروسيا ، ولكنه بعيد عنها ، وان لم تزل الصداقة متينة بينهما ، تلك الصداقة التى قامت أساسا لتخدم أهدافا سياسية معتدلة • • • وليست أيديولوجية •

* * *

هناك عامل آخر وضع على عاتق صداقة موسكو للشرق الاسلامى حملا ثقيلا ، لا يمكن الاستهانة به أو التخفيف من شأنه ويكمن ذلك

فى موقف البلشفيين من الدين • نعم فهم البلشفيين منذ البداية أن ينافقوا بسماحتهم مع الأديان ، ويظهروا بمظهر من لا يحمل عداوة للدين — فهم ليسوا ملحدين — أمام من وراء حدود الدولة الروسية ، أى فى العالم الاسلامى أيضا • ولكن الأنباء تؤكد أن موسكو تلعب دورا ذا وجهين ، اذ تعلن أنها — أى موسكو — تتصرف مع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانها تصرفا مغايرا تماما لما تظهر به أمام الشعوب الاسلامية ، وقد استقر هذا فى وعى المسلمين فى آسيا وافريقيا ، وحفظته ذاكرتهم فاستولى عليهم الشك والارتياب فى كل ما تصدره موسكو ، من أقوال وأفعال •

تحت الحكم الروسى يعيش ما يقرب من عشرين مليون مسلم ، تمتعوا فى بادىء الأمر باعتدال سياسية البلشفيين تجاههم ، اذ تصرف حكام روسيا معهم بتحفظ حتى لا تنسف مجهودات السياسة الروسية فى الشرق الاسلامى من داخل الاتحاد السوفييتى ، فحاولوا تفسير موقف محمد [ﷺ] ورسالته بأسلوب شيوعى ، وتركت منشآت الاسلام الفكرية والروحية دون أن تمس ، وبقى زعيم المسلمين الروحى — مفتى المسلمين فى الاتحاد السوفييتى رضا الدين فخر الدين — فى منصبه ، غير أنهم سلبوه امكانية التأثير على أتباعه المؤمنين ، ولكن تغير هذا الوضع عند ما لم يتخذ المفتى — فى المؤتمر الاسلامى العالمى الأول فى مكة — موقفا يتفق مع خطط موسكو ، نعم لم تجرؤ الحكومة السوفييتية على عزله من منصبه ، ولكنها سلبته الموارد المالية ، ووضعته تحت رقابة مشددة ، فعاش هذا الرجل على الصدقات الطفيفة التى كان يقدمها له أصدقاؤه • ومات فى ابريل عام ١٩٣٦ م فمنعت الرقابة نشر نبأ موته داخل الاتحاد السوفييتى ، ومنذ ذلك الحين ظل المنصب شاغرا لم يعين فيه أحد •

منذ عام ١٩٢٧ م تقريباً ، أى منذ لم يستطع فى موسكو الاستمرار فى كتمان فشل السياسة الروسية فى الشرق الاسلامى ، اذ تحطمت جهودها فى تقريب الثورة الوطنية من الاتجاه الثورى الاشتراكى •••

منذ ذلك الحين تغيرت سياسة الحكومة السوفييتية تجاه المسلمين الروس تغييراً جذرياً ، وسقطت أقنعة التسامح الدينى ، فأغلق عدد كبير من المساجد وجمعيات تحفيظ القرآن ، بلغ عددها حتى عام ١٩٣٣ ما يقرب من ٨٠٪ من العدد الكلى للمساجد ، ولم تهدم أبنيتها بل تحولت الى مدارس علمانية ومسارح ودور للخيالة — سينما ونواد — وتحول مبنى المدرسة الاسلامية العليا فى سمرقند — فى « Ulugh Beg Tin » — الى متحف للالحاديين — أى من ينكرون وجود الله — ، وطبقا للتقديرات المتحفظة ، فقد بقى للمسلمين فى بخارى عام ١٩٣٣ عشرة فى المائة فقط من مساجدهم التى كان عددها أربعمائة مسجد •

وقد حاولت « جمعية الملحدين المناضلين Verband der kämpfenden Gottlosen » أن تنشر تعاليمها فى المناطق الاسلامية فى روسيا ، واستماتت فى نشاطها للحصول على أتباع من المسلمين ، ولكن المسلمين بدوا محصنين ضد دعاية هذه الجمعية ، ومما هو مؤكد أن أعضاءها مارسوا معهم كل الأساليب حتى استعمال القوة ، ومع هذا فنجاح هذه الجمعية ظل ضئيلا جداً ليس له وزن • ومن الجدير بالذكر أن « مبشرى » جمعية الملحدين لاقوا من المسلمين عنتاً أكبر ، ومقاومة أعنف مما لاقوه من المسيحيين •

اتسم موقف السوفييت على الطرف الآخر من الحدود الروسية تجاه الدين الاسلامى بطابع التأرجح ، اذ يحاول الشيوعيون شرح البلشفية على أنها صورة حقيقية للاسلام فى عهده الأول ، اذ أنها تتفق معه فى الدعوة الى الاشتراكية التى تضمن للفرد حق الحياة فى المجتمع •••

ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، فتتقول الأنباء الواردة من داخل الاتحاد السوفييتى — رغم الرقابة الشديدة التى تحاول منع تسرب هذه الأنباء — أن آلافا من علماء المسلمين يعيشون فى المنفى ••• وحين تتسرب هذه الأنباء بين المسلمين — الذين يلتزمون الخط الاسلامى — تقوى شكوكهم فى أخبار موسكو ، ويزيد من تحفظهم تجاه كل ما يأتى —

ومن يأتى — من موسكو • تجاه تلك المحاولات المتكررة فى بلاد العالم الاسلامى لنشر دعاية واتجاهات ومبادىء حركة الملحدين ، ويدل على ذلك ما حدث فى العربية السعودية ؛ اذ أن السوفييتى المدعو « ناصر جورجا كولوف Nasir Jurjakulow » — قبل انه مسلم وكان يمثل الاتحاد السوفييتى فى بلاط ابن سعود حتى نهاية عام ١٩٣٥ — استغل منصبه فوزع فى مكة — المدينة الاسلامية المقدسة — كتيبات دينية ومنشورات ثورية باللغة العربية ، كانت قد نشرتها من قبل جمعية الملحدين المناضلين ؛ فغضب الرأى العام فى العالم الاسلامى . واجتاحت موجة الاستنكار شعوب المنطقة الاسلامية ، ولما بلغت الفضيحة ذروتها وفاحت رائحتها فى أجواء الشرق الاسلامى تبرأت الحكومة السوفييتية مما فعله ممثلها واستدعته •

* * *

لم تتحقق أغراض روسيا فى العالم الاسلامى على الوجه الذى أرادته ، ولم ينضج ما غرسته من بذور الاشتراكية كما أرادت لها وتوقعت منها ؛ ومع ذلك فقد أحدثت مقابلة روسيا الثورية مع الاسلام تقلبات فى علاقة العالم الاسلامى مع دول أوروبا الغربية ، اذ نجحت فى تصعيد وتقوية التيارات السياسية التى تنادى بالمساواة التامة بين شعوب المنطقة وبين القوى الاستعمارية تحت مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها الوطنى • وفى هذه المقابلة — روسيا مع الشرق — أسر الى الشرق الاسلامى بمطالب هى الآن موضع مناقشة مع القوى الغربية وبالذات مع انجلترا • وهكذا كانت نتيجة المقابلة مع شعوب الشرق الاسلامى فشل كل المخططات الاستعمارية — الانجليزية والفرنسية — فى المنطقة الاسلامية ، وحتمت — بمرور السنين — تغييرا جذريا فى سياسة أوروبا تجاه الشرق • وعن طريق التقاء روسيا بالشرق ، مهد الاسلام — وهو ثورى فى مبادئه واشتهر أتباعه بالنضال ومقاومة الأجنبى عبر التاريخ — وعبئت القوى الوطنية لطرد أوروبا — بطريقة منظمة وشاملة — من المجال الاقتصادى واجبارها على التقهقر فى

الميدان السياسى • وبهذا سوف تهيأ الظروف للعالم الاسلامى أن يحتل مكانا بين القوى العالمية •

سبقت انجلترا غيرها فى ادراك ضرورة تغيير عقائدها السياسية فى مشاورات تسوية النزاع مع الشرق الاسلامى ، فقد دفعت بادىء ذى بدء الى الحرب فى العراق وفلسطين بدافع حب الغزو والسيطرة الاستعمارية ، لأنها أرادت وضع الخط البرى بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى — وهو أقرب طريق الى الهند — تحت سيطرتها المباشرة ، أما الوعود التى بدت متعارضة مع تحقيق هذا الهدف — من هذه الوعود ما أعطته انجلترا للعرب بالاستقلال الذاتى ، وانشاء دولة عربية مستقلة — فقد أملت الظروف على انجلترا التصريح بها ، حتى تستطيع المضى قدما فى الوصول الى أهدافها ، وتمكنها فى اللحظة المناسبة من التنصل منها وانكارها — كما فعلت بعد ذلك — ومما يثبت هذا الاتجاه لدى بريطانيا أن هناك معاهدات سرية — وقعت أثناء وبعد الحرب — ارتكزت على محور سياسة ضم المناطق ، كما كان معتاداً فى القرن التاسع عشر ، كذلك أظهرت معاهدة « Seikes - Picot » — التى عقدت عام ١٩١٦ م بين انجلترا وفرنسا وقسمت تركيا القديمة بينهما — فى بنودها اتجاها استعمارياً صارخا يرجع بالذهن الى القرن التاسع عشر ، حيث كان هذا الاتجاه سائدا ، بل كان الأسلوب الذى بنيت به الامبراطورية الاستعمارية الكبرى •

ولكن فترة ما بعد الحرب — حيث حدث تغيير فى مناطق وحدة المصير الاسلامى ، فقامت دول جديدة فى الجزء العربى ، وانطلقت انتفاضات ثورية فى الأجزاء الأخرى — بدأت القوى الاستعمارية تتراجع عن مخططاتها القديمة ، وكلما اشتد الضغط عليها أسرعت فى تقهقرها ، فتنازلت عن آمالها الاستعمارية ، وعدلت فى عقائدها السياسية التى اعتنقتها قبل وأثناء زمن الحرب وكانت توشك — أو هكذا خيل لها — على الوصول الى هدفها فى هذه المنطقة • وهكذا لم يسر التطور التاريخى اطلاقا طبقا لقانون المخططات الاستعمارى الغربى :

بل تحكمت فى سيره سياسة التقارب بين الرغبات الأوروبية ومطالب القومية الاسلامية • تلك القومية التى ازداد اندفاعها يوما بعد يوم وانطلقت بخطى واسعة نحو تحقيق مبادئها . فى حين انحصرت دعاوى الدول الاستعمارية الأوروبية وتواضعت آمالها فى الشرق •

اتسم طابع الاستعمار الانجليزى بالهدوء — نسبيا — والاتزان فى تنفيذ مخططه ، فلم يكن متشددا ولا متصلباً أمام استفزازت الوطنيين ، كما كان الاستعمار الفرنسى — فقد كانت فرنسا الدولة التى اعتمدت فقط على السلاح فى تثبيت مركزها وفرض سلطانها فى مستعمراتها — اذ كان التاجر الانجليزى يمهد الطريق أمام الاتساع الاستعمارى — أى كان طليعة انتشار الاستعمار الانجليزى — ويأتى السلاح وراءه بحجة حماية مصالح التجارة البريطانية فيستقر فيما « فتح سلمياً » ، أى تحتل الجيوش البريطانية المناطق التى تستطيع بريطانيا أن تبرر غزوها العسكرى لها بما يبدو « منطقيا ومعقولا » ، ثم رسمت بريطانيا خط التطور السياسى فى تلك البلاد — الواقعة تحت سلطانها — على أساس تهيئتها للحكم الذاتى تحت التاج البريطانى — وبذلك تحقق ما أرادته من أطماع استعمارية — بحيث يتحكم فيها نظام الفكر الانجليزى • وعليه فلم يظهر سلاح الجنود الانجليز الا نادرا ، بل ترك المجال للمستشارين الانجليز ليلعبوا الدور الرئيسى . وقابلت مراحل الانفصال عن الوطن الأم — التى صاحبت الاتجاه الى الاستقلال الذاتى خطوة خطوة — بخطوات تدعم ازدياد المصالح المتشابكة التى تؤدى الى ارتباط طبيعىمن نوع جديد بالجزر البريطانية •

كذلك تتجه السياسة الانجليزية فى المستعمرات — على العكس أيضا من السياسة الفرنسية — الى عدم استغلال المستعمرات واستنزافها استنزافا كلياً ، ويرجع ذلك بنوع خاص الى نية بريطانيا فى تطوير تلك المستعمرات ، وربما يكون القصد من ذلك أيضا جعلها أسواقا جديدة لمنتجات الوطن الأم •

غير أن هذا الاستعمار الانجليزى المرن ، لم يلبث أن أحس

بالتيارات المقابلة ، فكان عليه أن يدرك بسرعة وبدون تلكؤ التغيرات التى طرأت على الفكر فى الشرق الاسلامى أثناء المقابلة مع روسيا الثورية ، وكيف أصبحت القومية الاسلامية صعبة المراس فى مطالبها ، شديدة الحساسية فيما يتعلق بكبريائها وهيبتها ، فقد كان الرجل الأبيض — وهو السيد الانجليزى — حتى هذه المقابلة — مع روسيا — نموذجا يحتذى به الشرق الاسلامى ، وكان وطن السادة الانجليز المثل الأعلى للديمقراطية التى ينشدها ويسعى لتطبيقها فى نظم حكم بلاده • ولكن تغيرت هذه النظرة تغييراً جذريا بعد المقابلة مع موسكو ، فقد تبينت القومية الاسلامية « قيمتها الذاتية » وتبدلت نظرتها ، فلم تعد تتجه فقط نحو الغرب لتأخذ منه أساليب الحكم ونظم الديمقراطية لتنسج على منوالها هيئاتها الدستورية ، اذ تحول الفكر فى الشرق الاسلامى عن نماذج الديمقراطية فى الغرب الى المبادىء الثورية — التى صدرتها روسيا اليه — ، فحدد بها اتجاهاته ، وعبد عليها طريقه للوصول الى الاستقلال ، وتولى مقاليد السلطة فى بلاده • ففقدت الوصاية الانجليزية — التى عرفت كيف تتجاوب تجاوبا مرنا مع تقاليد الشعوب وعاداتها الطبيعية ، وتعمل على تهيئتها لحكم نفسها Self government — مركزها ، ولم تعد بأى حال من الأحوال المثل الأعلى للشعوب الشرقية • ازدادت القومية الاسلامية قوة ، وتحركت فى الميدان تحرك بالغ رشيد مدرك ، نفض الوصاية عن عاتقه ، ورفض أن يعيش مقيد الحركة ، مسلوب الارادة ، تابعا لمن يرسم له طريق حياته وأسلوب نظامه ، فاضطرت السياسة الانجليزية أن تتبع أسلوبا آخر فى حسم النزاع مع دعاة القومية الاسلامية ، فاتجهت نيتها الى ارساء قواعد جديدة كل الجدة لبناء علاقتها مع الشرق ، لذا وجب على انجلترا أن تتوصل الى صيغة تتساوى فيها مصالحها الخاصة مع الكبرياء الوطنى الذى ازدادت درجة حساسيته فى مناطق الشرق ، ولا تصطدم بظاهرة حب الاستعلاء التى اجتاحت الدول الاسلامية ، وانتشرت بين الشعوب — حتى بين الأفراد — لتطرد الشعور بأنها أقل كفاءة من غيرها فى القدرة

على تولى زمام سلطتها بنفسها ، وعلى أن تبنى مجتمعا قادراً على خلق الحضارة ونشر المدنية الحديثة •

بدأت انجلترا أثناء مشاورات تسوية النزاع الأفغانى تدرك أثر الشعارات الروسية — وكذلك المساعدات الأدبية والمادية — فى الشرق الاسلامى اذ أجبرت عى التنازل — رغم أنفها ودون أن تنم ببنت شفة — عن أفغانستان وترك تلك المنطقة التى زاولت فيها أساليب الحماية الأجنبية • ففى معاهدة السلام التى عقدت فى « روالبندى » اعترفت انجلترا اعترافا صريحا — لا شك فيه — بأول انتصار أحرزته القومية الاسلامية — بمساعدة روسيا — على الامبراطورية البريطانية ، عندما سلمت « للمملكة الأفغانية المستقلة » بحريتها واستقلالها فى تصريف شئونها الداخلية والخارجية ، وظلت انجلترا سنين طويلة تحاول — عن طريق المشاورات والاتصالات الديبلوماسية — استرجاع هذه الأرض المفقودة ، ولكن جهودها باءت بالفشل فاضطرت انجلترا على الاستمرار — والتأكيد من جديد — فى الاعتراف بما أعطته وسلمت به فى معاهدة « روالبندى » ، وجاء ذلك فى المعاهدة الأفغانية البريطانية التى عقدت فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ فى كابول ، اذ حددت معالم العلاقات الانجليزية الأفغانية ، وثبتت معالم الحدود بين الهند وأفغانستان تثبيتا نهائيا •

* * *

أثرت المكاسب الوطنية التى حصلت عليها أفغانستان على موقف بريطانيا فى تسوية نزاعها مع القوميين الأتراك ، التى ابتدأت المشاورات فيها بعد أسابيع قليلة من التوصل الى اتفاق بريطانيا وأفغانستان • فقد كانت انجلترا القوة الأولى التى سحبت جيوشها من النزاع حول المناطق الجوهرية فى الأناضول ، فى حين حاول — هناك — اليونانيون والفرنسيون والايطاليون تأكيد حقهم فى معاهدات التقسيم المختلفة ، فاصطدموا بمقاومة الوطنيين الأتراك التى اشتعلت فجأة وبدون مقدمات تحت قيادة « كمال باشا » الذى وجد فى روسيا خير عون له

على التصدى لهؤلاء المستعمرين ، وأقوى صديق يسنده فى هذا الكفاح ضد القوى الطامعة فى بلاده • سلمت لندن — لأنها لم ترد اطلاقا تحقيق أطماع سياسية استعمارية فى الأناضول أمام مقاومة الوطنيين الأتراك — فسحبت قواتها — التى كانت قد تحركت من بحر مرمرة على طول الخط الحديدى الأناضولى الى داخل منطقة الأناضول — الى الشاطىء ، ثم تركت الشاطىء أيضاً أثناء فترة صيف عام ١٩٢٠ م ، لأن الدبلوماسية الانجليزية أحست بأن قوى وطنية انفجرت فى المنطقة ، ولا يجوز التصدى لها ، أو اعتراض طريقها ، أياً كان نوع هذا الاعتراض ، اذا أرادت انجلترا أن تقيم علاقات ودية ومثمرة معها •

* * *

سارت الأحداث فى جنوب فارس سيراً مماثلا ، فعندما رأت انجلترا نفسها — قبل الثورة الروسية — أمام تحقيق أهدافها الاستعمارية ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى ، اضطرتها الأحداث التى اجتاحت المنطقة فيما بعد الثورة الروسية الى اعادة النظر بشكل جدى فى القبض على زمام الأمور هناك ، فقد نظم سير « برسى كوكس Sir Percy Cox » فى عام ١٩١٦ جيشا انجليزيا فارسيا — أطلق عليه آنذاك اسم « دفاع جنوب ايران South Persia Rifles » • راودت الآمال انجلترا فى استخدامه لتنفيذ مخططها الاستعمارى وأطماعها فى مناطق البترول وجنوب شرقى فارس حيث الحدود مع بلوخستان • وبعد عام واحد انضمت اليه قوات « الجندارمة » (الشرطة) التى كونها ودربها ضباط سويديون بتكليف من الشاه — أى ضمت قوات الشرطة الى القوات الحربية الانجليزية — وبهذا الجيش بدأ الانجليز بعد الهزيمة الروسية الزحف على شمال فارس ، ولكنها سرعان ما أدركت فى طريقها الى الشمال اثر الثورة الروسية فى فارس ، فقد جمع المتطوعون الفارسيون أنفسهم حول شعارات موسكو الثورية المناهضة للاستعمار — التى نشرها هناك كوتشك خان — وتصدوا للزحف الانجليزى ، ولكن جيش انجلترا أثبت أنه أقوى منهم ، فلم يتوقف زحفه ، وواصل سيره نحو الشمال • وفى صيف عام ١٩١٩ م أوقف

سير « برسى كوكس Sir Percy Cox » — باعتباره ممثل بريطانيا العظمى — الزحف على طهران فأكد استمرار تركة المملكة القاجارية تحت سيطرة انجلترا الفعلية ، عن طريق عقد معاهدة انجليزية فارسية ، وضعت الجيش الفارسى والادارات الفارسية تحت الرقابة الانجليزية ، فصارت بذلك دولة القاجاريين محمية بريطانية .

وتصور هذه المعاهدة — التى لم يقرها برلمان فارس — ذروة النفوذ البريطانى فى فارس ، غير أن السلطة البريطانية أخذت بعد توقيعها مباشرة فى الانحسار والتراجع المستمر ، اذ بدأت انجلترا مراجعة مستمرة — وان كانت بطيئة — للمبادىء السياسة التى مارستها الاستعمار البريطانى فى فارس .

رفض البرلمان الفارسى الموافقة على المعاهدة الانجليزية الفارسية ، وتأثر بالنداء الروسى — الذى أذاعته موسكو قبل وقت قصير — الى العالم الاسلامى ، فسقطت الحكومة الفارسية — بسبب المعاهدة التى وقعتها مع سير « برسى كوكس Sir Percy Cox » — وكانت برئاسة صديق انجلترا الحميم « Wessugh el Dawlah » الذى حصل على رشوة مقابل الضغط على وزرائه للموافقة على المعاهدة — ولم تجرؤ الحكومات التى جاءت بعدها على اخراج المعاهدة من أدراج المكاتب لعمل نسخة جديدة منها ، فالمقاومة الوطنية التى أشعلتها موسكو فى مواقع الجبهات ، وغرستها فى شعور الجماهير ضد انجلترا ازدادت قوة وصلابة ، ونجحت فرق القوقازيين بزعامة رضا خان — الذى صار الشاه فيما بعد — فى السيطرة على الموقف ، وتولت زمام الأمور ، ثم قامت فى فبراير بالزحف على طهران ، وفى ٢١ من ذلك الشهر قادت الانقلاب الذى تولى فى حكومته رضا خان منصب وزير الحربية ، غير أنه فى واقع الأمر أصبح الرجل الذى استطاع أن يجد فى قواته دعامة تحميه وتقف وراءه ، ولذلك تمتعت حكومته بمرور السنين بسطة مطلقة وسيادة حتمية .

عقدت موسكو اتفاقية مع رضا خان بعد وقوع الانقلاب بستة

أيام ، تنازلت له فيها عن كل امتيازاتها فى فارس ، وقدمت له معونة عسكرية — أعطته السلاح — ضد انجلترا ، وبعد توقيعها بيومين أعلن رضا خان بطلان المعاهدة الفارسية الانجليزية ، التى عقدت فى عام ١٩١٩ م ، وبهذا أجبرت انجلترا على التقهقر الى موقف الدفاع . ودرست لندن الموقف ، فتبين لها مدى قوة الدفاع التى يتمتع بها الوطنيون الايرانيون ، ثم توصلت من ذلك الى ضرورة تغيير مبادئها السياسية — التى اعتنقتها حتى ذلك الحين وسارت على أساسها فى تحقيق أطماعها الاستعمارية فى فارس — تغييرا جذريا ، فسحبت قواتها فى مايو سنة ١٩٢١ م — أى بعد ثلاثة أشهر من توقيع الاتفاقية الروسية الفارسية — من شمال ايران ، كى تتفادى صداما دمويا مع القوميين ، وبذلك هربت من طريق تسوية النزاع بالعنف ، وفى مقابل ذلك — أى سحب القوات البريطانية — انسحب الجنود الروس شمالا الى باكو .

أيقظت الحوادث — التى جرت فى أفغانستان وفارس — انجلترا ، وبينت لها خطر السياسة الروسية فى غرب ووسط آسيا ، فحاولت التوصل الى كيفية تضمن لها تبادل المعايشة السلمية مع روسيا كى تتفادى وقوع نزاع مباشر مع موسكو فى منطقة الشرق الاسلامى المتوترة ، وتحقق هذا فى معاهدة تجارية روسية انجليزية لا تكمن أهميتها اطلاقا فى الاتفاق على السياسة التجارية ، بل كانت واضحة وضوحا لا غموض فيه فى الفقرة الأولى من المعاهدة حيث تقول :

— يجب على كل طرف فى المعاهدة أن يبتعد عن كل موقف عدائى ضد الطرف الآخر .

— لا يجوز أن تمارس دعاية رسمية خارج حدودهما — عن طريق مباشر أو غير مباشر — ضد مصالح المملكة البريطانية أو الجمهورية السوفييتية .

— يجب وقف كل محاولة يكون القصد منها التحريض على القيام بأعمال عدائية ضد مصالح المملكة البريطانية فى الهند وفى غرب آسيا .

عرفت انجلترا نوع وأسلوب الخطر الذى جذبته موسكو الى الميدان فى غرب آسيا ضد الاستعمار الأوروبى ، وعلى الأخص ضد الانجليزى ، فحاولت — عن طريق هذا الرباط المنصوص عليه فى المعاهدة التجارية والذى ألزمت به انجلترا موسكو — تضييق آثاره ومحاصرتها بهذا الأسلوب ، ثم بان لانجلترا مدى ضآلة التزام موسكو لمثل هذه القيود التى جاءت فى المعاهدة ، وثبت لها ذلك مراراً وتكراراً ، اذ أن الحكومة السوفييتية نسبت كل مخالفة لما جاء فى هذه المعاهدة الى حركة الشيوعية العالمية التى أسست فى عام ١٩١٩ م ، وأعلنت أنها غير مسئولة عن أعمال هذه المجموعة اطلاقا ، فلا تخضع قراراتها — هكذا دعت حكومة موسكو — لرقابتها •

رغم المعاهدة المعقودة بين انجلترا وروسيا — والتى بواسطتها علقت بريطانيا الأمل على وقف نفوذ موسكو العدائى فى ساحة النضال الفارسية — فقد استمرت تصفية السلطة الانجليزية بسرعة ، اذ أن البرلمان الفارسى الرابع الذى بدأ دورته فى يونيو ١٩٢١ قرر رسميا مرة أخرى بطلان المعاهدة الانجليزية الفارسية ، ولم يكد يمضى وقت طويل على هذا القرار حتى طالب بحل قوات « دفاع جنوب ايران » « South Persia Rifles » وتسريحها ووافقت انجلترا على هذا المطلب • وبعد اختفاء قوات السلطة الانجليزية من فارس تركت الرقابة الانجليزية للادارة الفارسية دون استثناء ، وبهذا طويت صفحة النفوذ البريطانى نهائياً •

لم تضطر انجلترا الى نبذ استعمال القوة فى حل نزاعها مع القومية الاسلامية فيما يتعلق بالأمور السياسية فقط ، بل أصبح الطريق الوحيد — وهو عدم استعمال القوة والالتجاء الى المباحثات — أمامها فى المجالات الأخرى ، اذ لم يكد يمضى وقت طويل على تراجع انجلترا العسكرى — ويتضمن معه أيضاً تراجعاً سياسيا — حتى أجبرت على التقهقر فى المجال الاقتصادى ، فبعد عشر سنوات فقط تلقت بريطانيا الضربة الثانية فى ميدان البترول ، فمنذ عام ١٩١٩ تقوم الشركة

الانجليزية — التى كانت آنذاك تعرف باسم « انجلو فارس Anglo - Persian » وتعرف اليوم باسم « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — برعاية المصالح الانجليزية فى حقول الزيت فى جنوب فارس — والمعروف أن الأدميرالية البحرية البريطانية تملك معظم أسهم هذه الشركة — وفى عام ١٩١٩ م — حينما بدت فارس وكأنها سلمت كلية للسلطة الانجليزية — مدت الشركة مناطق امتيازاتها — التى كانت محددة فى الاتفاقية بحقول الزيت فى جنوب فارس — الى شمال فارس أيضاً ، الا أن البرلمان الفارسى رفض هذا التوسع الذى تعمدته شركة البترول الانجليزية ، وجاء هذا الرفض فى نفس الوقت الذى أعلن فيه بطلان المعاهدة الفارسية الانجليزية ، فسلمت انجلترا بهذا الرفض ، واضطرت لندن مرة أخرى أن تتراجع فى الميدان الاقتصادى أمام قوة دفاع القومية الايرانية المباغتة .

اندلع الصراع فى نهاية عام ١٩٣٢ م — أى بعد أحد عشر عاماً من رفض البرلمان الفارسى — حول حقوق امتيازات « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » ، وأظهر مرة أخرى مدى الضعف الذى آل اليه موقف انجلترا ؛ وكذلك موقف الاستعمار الاقتصادى الأوروبى معه فى ايران ، ومدى القوة التى تكمن فى الصمود الداخلى للقومية الاسلامية — فى طابعها الايرانى — فى حسم النزاع مع القوى الاقتصادية الغربية ، نعم ترك رضا شاه عقد امتياز « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — عندما حيل بينها وبين التنقيب فى شمال فارس — قائما لم يمس ، رغم أنه عقد فى عهد ضعف الدولة الفارسية ، ويحتوى على شروط يسهل على الفكر تبيان اجحافها بالنسبة للدولة الايرانية ، الا أنه ترك فى مطلع عام ١٩٣٢ الصحافة الايرانية تشن أول هجوم على شروط امتيازات شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — عندما حيل واستندت فى هجومها على ناحية أدبية ، وهى أن أى دولة مستقلة لا تكون ملزمة بتنفيذ اتفاقيات عقدت فى عهد ملكية بائدة ، ونظام سرى

فى أوصاله السوس وانبعثت منه رائحة التعفن ، فحيث لم يكن قادراً على الدفاع عن مصلحة الشعب ، فما تركه من معاهدات واتفاقيات يجب بطلانه فوراً • كان هذا الهجوم بمثابة مقدمة لنضال قاده الرأى العام الايرانى بصلابة ، ودون أن يصيبه كلل أو ملل ، مطالباً بتعديل عقود امتيازات شركة البترول الانجليزية ، واستندوا أيضاً فى هذا — أى تعديل العقود — الى أن كل اتفاقيات الامتيازات التى عقدت فيما بعد — ويقصدون بذلك الاتفاقيات العراقية — أعطت الدولة صاحبة حقول الزيت مكاسب تفوق بكثير ما نص عليه فى الاتفاقيات الايرانية ، وتحت ضغط الرأى العام الذى لم ينقطع ولم يهدأ ، وافقت ادارة « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » فى المباحثات على مبادىء جديدة يلتزم بها فى عقود الامتيازات ، ومع هذا لم يصلوا الى اتفاق فقد أظهرت المباحثات بين وكلاء الشركة وبين الحكومة الايرانية أن كل طرف نفخ أوداجه ، واستجمع قوته للحصول على مكاسب أكثر ، قبل أن يبدى استعداده للموافقة على الأسس العريضة لها ، وكل منهما دخلها عاقدا العزم على توجيهها نحو هدفه هو ، وليس للوصول الى حل وسط بين الاتجاهين •

ترك رضا شاه المسألة تنحدر الى حيث يستعرض عضلات قوته من جديد ، اذ بعثت الحكومة الايرانية خطابا فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٢ الى وكيل « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » فى طهران تبلغه فيه الغاء امتيازات البترول ، مشيرة الى أن الحكومة تعتبر حقول الزيت الايرانى ملكا للشعب الايرانى • فأيقظ هذا الهجوم ضد الشركة الانجليزية — وهى صاحبة جبروت ، اذ تقف خلفها الأدميرالية البحرية للامبراطورية العالمية — لدى الايرانيين عاصفة من الاستحسان والاعجاب ، وفجرت أمواجاً هادرة من العواطف المشوبة بالفرح والابتهال ، فزينت المدن الايرانية فى هذا اليوم التاريخى وانقشع ظلام ليلها من كثرة ما علق على واجهات أبنيتها ومحلاتها من المصابيح الكهربائية ابتهاجاً بهذا الحدث العظيم • • • وما قيمة هذا

الحدث ؟ انه التعبير لاستعادة الشعب قوته الوطنية مرة أخرى ، لـذا أصبح عيداً وطنياً شارك فيه الشعب كله بأساليب مختلفة ، وأعرب عن اعجابه للحكومة ، اذ انهالت عليها ــ أى الحكومة ــ فى طهران برقيات التأييد من كل أجزاء المملكة الايرانية ، يعرب فيهـا مرسـلوها عن استعدادهم لبذل الروح والمـال لمساندتها فى هذه القضية •

أطلقت انجلترا العنان للصحافة ــ بل دفعتها وشجعتها ــ لتعلن حرباً اعلامية ضد الشاه ، فانفجرت حملة شملت كل وسائل الاعلام ، وجهت للشاه وحكومته ودفعت كل ما لديها من ثقل فى هـذا الميدان ، علها تستطيع النيل منه والتأثير عليه ، فتتوصل الحكومة البريطانية ــ التى لم تستعمل قوتها للرد على هذا الاستفزاز ، بل رأت أن تحل المشكلة عن طريق المباحثات ــ الى حل يرضيها • وبعد أن عبئت الصحافة فى لندن فبلغت ذروتها فى الهجوم ، عادت ودعت الى التفاهم ، فتجاوبت الحكومة الايرانية مع هذه النغمة ، وأبدت اسـتعدادها للمباحثات البناءة ، ثم أعلنت أنها توافق على عقد اتفاقية امتيازات جديدة مع « شركة انجلو ايران Anglo - Persian » بشرط أن ينص فيهـا على اعطاء الشعب الايرانى حصة كبيرة من الأرباح •

وصل الطرفان الى اتفاق بعد أربعة أشهر من المباحثات ، فوقع العقد الجديد فى مايو ١٩٣٣ م ، وافقت فيه الشركة على أن تحصل ايران من انتاج « شركة انجلو ايران Anglo - Iranian » على نسبة كبيرة • ولم يكن تحسين موقف ايران فى الاتفاق مع أكبر شركات البترول البريطانية ذات السـيطرة العالمية ، هو النتيجة الجوهرية لمظاهـرة استعراض العضلات التى قادتها الحكومة الايرانية ، بل تراجـع بريطانيا ــ وهو أمر مؤكد لا شك فيه ــ دون نضال أمام مناورة القومية الاسلامية ، وتنازلها عن الحقوق الثابتة والواضحة وضوح الشمس ، والتى لا يحق لأحد أن يمسها أو ينكرها •• •• لو حدث هذا قبل ثلاثين عاماً لكفى ظهور الأسطول البحرى الانجليزى فى الخليج الايرانى ــ مجرد الظهور فقط ــ فى اخضاع مثل هؤلاء الذين يستعرضون عضلاتهم

اليوم للتأثير بها على نيل مكاسب أكثر من الشركات الأجنبية ، فتغير الظروف منع انجلترا من محاولة القيام بالتظاهر الحربى ، وأجبرها على أن تتخذ الطريق السلمى لحل هذه المشكلة .

* * *

كانت الأحداث فى المنطقة العربية أبعد أثراً — على السياسة الانجليزية فى تغيير مسارها عن الخط الذى رسم لها قبل الحرب — مما فعلته القوى التى استيقظت فى شمال العالم الاسلامى ، فبينما ساعدت روسيا القوى الوطنية فى الشمال على الوقوف ضد انجلترا ، مما جعلها تتراجع عن سياستها الاستعمارية ، اذ بالقوى التى انفجرت فى المنطقة العربية ، تضع أمام أعين انجلترا حتمية تغيير أسس سياستها التى خرجت بها من الجزر البريطانية قبل الحرب — وهى سياسة الغزو الاستعمارى — وضرورة تعديل كيفية الوصول الى تحقيق الأطماع الاستعمارية .

فقد وصلت انجلترا الى المنطقة العربية لتحقيق هدف كان أحد الأسباب الرئيسية التى دفعتها الى ميدان الحرب ضد تركيا ، ألا وهو اخضاع المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى للسيادة البريطانية ، لتكون طريقاً برياً — خاضعا للرقابة الانجليزية — الى الهند ، وهو ما كانت تحلم بـه قبل الحرب ، وتراودها الآمال فى الحصول عليه .

ظلت السلطنة التركية العظمى تحافظ على سيادتها على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط — على الرغم من سريان الضعف فى أوصالها وتهالكها الذى عم جميع أجزائها — عن طريق محاورات ماهرة ، ومداروات ماكرة أمام الطامعين الغربيين ، وغرس الوقيعة بين القوى الأوروبية التى تسعى للحصول على مكاسب من تركيا ، وتتحفز للانقضاض على تركة السلطنة المتهالكة ، وبينما كان الصراع — بين تركيا المتهالكة والقوى الاستعمارية الأوروبية — دائراً ، وقفت انجلترا تنتظر وترقب — وهى قابعة على ضفاف النيل — اللحظة التى تستطيع

فيها التحرك لتحقيق أمانيها الاستعمارية فى الحصول على طريق برى الى الهند بجانب الطريق البحرى الذى تفرض سلطانها عليه ، فسنحت لها عندما دخلت السلطنة التركية الحرب العظمى فى جانب دول المحور •

حاصر الجيش الانجليزى تركيا من جانبين — من سيناء ، ومن العراق — ولم تكن فى وضع يمكنها من الصمود أمام جيش الامبراطورية ، لأن أعراض الشيخوخة ظهرت عليها ، فأسسها منهارة ، وبناؤها متهالك وآيل للسقوط ، هزته الثورة العربية فقطعت ما تبقى من أوصاله ، وأحدثت فيه شقوقا سهلت على بريطانيا المروق منها الى حيث تريد ، ففى نهاية العام الثالث للحرب كان نصف المنطقة العربية الشمالية فى غرب آسيا — وهى المنطقة الواصلة بين البحر المتوسط والمحيط الهندى — تحت سيطرة القوات الانجليزية ، وفى احدى معاهدات التقسيم مع فرنسا وأعنى معاهدة « Seikes - Picot » — اعترف الطرف الفرنسى بسيادة بريطانيا على المناطق التى طمعت فيها لندن ، وحددت المعاهدة النصيب الفرنسى — أساسا — فى المنطقة المعروفة اليوم بسوريا • وحلت الادارة العسكرية الانجليزية محل الادارة التركية القديمة فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين ، فبدا لانجلترا أنها قد حققت أحلامها ، ووصلت أهدافها التى كانت تراودها الآمال فى الوصول اليها ، ولا تحتاج الآن سوى اعتراف عالمى بواسطة عقد معاهدات سلام ، والحصول على شرعية وجودها فى هذه المناطق من هيئة قانونية دولية ، فاقترح تكوين عصبة الأمم لتمثيل هذا الدور •

أخفت بريطانيا وجهها الاستعمارى ، فتنازلت عن الضم السافر لمنطقة وصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج الفارسى العربية ، واختارت دور الانتداب ، لتتحرك خلف الكواليس ، ولكن بان لها أن هذه الطريقة ليست مأمونة فى تنفيذ مبادئها السياسية التى ميزت معالم خطتها الاستعمارية فى عصور ما قبل الحرب ، وأظهرت أن السياسيين فى لندن بدأوا يدركون ، كم أضاعوا من الوقت والجهد فى تطبيق طريقة

فى العالم الاسلامى اتبعوها قروناً طويلة فى حماية مصالح الامبراطورية العالمية •

لقد كانت الطريقة التى اختارتها بريطانيا — وهى الانتداب الذى حصلت على « شرعيته » من عصبة الأمم ونص عليه فى معاهدات السلام — لتضمن سيطرة الامبراطورية سيطرة نهائية على منطقة العبور الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الايرانى ، أسلوبا استعماريا توصلت اليه لندن حتى تستطيع — خلف كواليس الشكل الجديد لحكومة « شرعية » فى هذه البلاد — أن تمارس عمليا ضم هذه المناطق الى امبراطوريتها • وظنت انجلترا أنها سوف تتخلص من شبح القومية الاسلامية عن طريق اقامة شكل ظاهرى لحكومات وطنية ، تبدو — ظاهريا فقط — أنها تتمتع بحقوق الحكم الذاتى فى أوطانها • واعتقدت أنها تستطيع اشباع رغبة تلك القومية — التى استنفرت أثناء الحرب لتثور ضد الباب العالى — بهذه الأشكال الظاهرية للحكومات الوطنية •

تم تقدير مصائر هذه الشعوب على هذا النحو — كما حدث أيضاً فى المنطقة الايرانية والأفغانية — دون أن تعلم القوى الوطنية شيئاً عما دبر لأوطانها وأدركت القومية العربية — التى حاربت فى صفوف الجيش البريطانى أثناء الحرب لتقضى على سلطان الباب العالى وتحرر المنطقة العربية منه — أنها خدعت — فى اللحظة التى اعتقد فيها العرب أنهم على وشك تحقيق أمانيهم — فقد غرر بها حلفاؤها البريطانيون ، وعدوا العرب أثناء الحرب باستقلالهم الذاتى ، ثم هم الآن يتنكرون لهذا الوعد ، فتغير وجه نضال القومية العربية ، فمن كان بالأمس يحمل سلاحه ويناضل ضد تركيا ، فقد بدأ اليوم يكافح ضد القوى الغربية التى أرادت الاستيلاء على التركة التركية فى المنطقة العربية ، ثارت القومية العربية فى كل مكان : فى سوريا ضد الفرنسيين ، وفى فلسطين والعراق ضد انجلترا ، وظهر أنها لا تقبل اطلاقا الاقتناع بأسلوب القوى الأوروبية ، فترضى باستقلال ذاتى لا يتعدى أثره

المظهر الخارجيَ فقط ، اذ لا ترى فيه اشباع رغباتها الوطنية ، ولا يحقق آمالها القومية .

فتاريخ العراق أثناء فترة الانتداب البريطانى ، وكذلك ابان حكم الملك فيصل يلقى ضوءا ساطعاً على قصة التنازلات الانجليزية عن أهداف الحرب الاستعمارية فى غرب آسيا . فقد باشرت الدبلوماسية الانجليزية — ابان هذه الفترة — تجربة جديدة لتعوض ما عجزت عن تحقيقه بواسطة الجبروت الاستعمارى اذ اتجهت الى توحيد المصالح بين انجلترا والعراق ، كى يربط الاستقلال الوطنى للدولة الاسلامية الحديثة بالامبراطورية ، والى ارساء أسس التنسيق بين الطرفين فى جميع المجالات حتى تستطيع انجلترا حماية مصالحها فى تلك المنطقة .

أصبح العراق الواقع تحت الانتداب البريطانى — وهو الذى كان فى نظر الاستعمار البريطانى امتداداً لمناطق نفوذ انجلترا — مملكة عربية مستقلة ، تنحصر فيها مصالح انجلترا الاقتصادية ، وشئونها التى تتعلق بطرق المواصلات فى اطار ضيق بحيث لا تلقى فى سبيل المحافظة عليها سوى مقاومة تافهة ، ولكن مصالح المملكة العراقية ارتبطت على طول الخط بعجلة امبراطورية انجلترا العالمية ، وهكذا وجدت القومية العراقية — التى حملت لواء النضال سنين طويلة ضد الانتداب البريطانى فى سبيل تحقيق آمالها ومطالبها ولتحطيم سلاسل لندن التى كبلت بها الحرية فى العراق فسلبته استقلاله الذاتى — أسلوب حياتها تحت المظلة الواقية — السلم البريطانى « Pax Britannica » .

عندما اعتلى الملك فيصل — بمساعدة انجلترا ، فقد كان عصا فى يد بريطانيا فى بغداد — عرش المملكة العراقية الجديدة ، أجبر على أن يشير فى خطاب العرش أمام البرلمان ، أن المندوب البريطانى هو أعلى سلطة فى الدولة ، ولم تكن السياسة الانجليزية آنذاك قد أدركت بعد ، مدى القوة التى تتمتع بها القومية الاسلامية أيضاً فى العراق ، فلم تفطن اليها انجلترا ، وتتفادى الصدام معها الا بعد مضى ما يقرب من عشر سنوات . ففى معاهدة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠ — التى خضعت فيها

انجلترا نهائيا لهجوم القومية العراقية الذى استمر سنين طويلة ، فخلصت العراق من الانتداب البريطانى — توصلت السياسة الانجليزية الى صيغة مرنة ، تستطيع بها حماية المصالح الانجليزية فى اطار التنازل الكامل عن المطامع الاستعمارية فى هذه المنطقة العربية ، فأبقت الارتباطات العراقية بلندن مسترخية ومحددة بزمن ، وأعطت انجلترا حق استعمال قواعد فى العراق للسلاح الجوى البريطانى ، وحق استعمال الطريق الجوى الى الهند ، كما منحتها حق مراقبة السياسة الخارجية للعراق فى اطار عدم تصادمها مع مخططات المصالح الانجليزية •

لا زالت هذه العلاقة — بين انجلترا والعراق — سارية المفعول حتى اليوم ، على الرغم من أن صداقة الحكومات التى تعاقبت بعد انقلاب خريف ١٩٣٦ م ، لانجلترا قد اهتزت ، بل شوهت أحياناً تشويهاً مدمراً ، اذ تولت السلطة عقب الانقلاب حكومة لم تخف عداوتها لانجلترا ، فحاولت جاهدة أن تتحرر — الى أقصى درجة تستطيع الوصول اليها — من التبعية لانجلترا ، وتتقرب من تركيا ونظرت الى النظام الأوتوقراطى الذى طبقه كمال أتاتورك فى تركيا على أنه مثال يحتذى ، وتحمس له رجال الحكم الجدد فى بغداد ، فحاولوا الاقتداء به والسير على دربه ، كى ينهض العراق — حسب فهمهم — ويحقق نجاحا على طريق الاستقلال والتخلص من التبعية الأجنبية كما حدث فى تركيا •

ولكن فى هذه اللحظة التى بدأت فيها السياسة فى بغداد تتخذ طريقها نحو الاستقلال الذاتى بمحاولة التخلص كلية من لندن والاتجاه نحو تركيا ، تقاربت انجلترا وتركيا تحت ضغط التوسع الايطالى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط • وعليه فقد صبت أمواج السياسة الهادرة التى تفجرت من براكين بغداد — الثائرة ضد انجلترا — مياهها ثانية فى قنوات انجليزية فى العاصمة التركية ، وبهذا استعادت المصالح البريطانية شرعيتها من جديد ، وتظهر هذه السياسة — التى تلف فى محيط دائرى — بوضوح لا لبس فيه نوع المرونة ، التى تتحلى بها لندن لتتمشى مع التيارات والاتجاهات الجديدة فى الشرق الاسلامى ،

ذلك أمر فطنت اليه لندن وغيرت سياستها القديمة ، عندما أدركت أن العصر الذى حققت فيه أهدافها عن طريق ضم الأراضى ، أو التلميح بالقوة السياسية والعسكرية قد انتهى بظهور القومية الاسلامية •

قام «بكر صدقى» بانقلاب فى بغداد فى خريف ١٩٣٦م،كى يخلص العراق من تبعيته لمصالح الامبراطورية ، وبذل جهداً كبيراً لينهج سياسة عراقية مستقلة ــ كما كان يعتقد ــ نابعة من ذات الدولة وليست مفروضة عليها من الخارج ، فاصطدم هذا الموقف السياسى بوجود قاعدة ديبلوماسية انجليزية : « المصالح المشتركة » واعتبرته لندن أحد أعداء السياسة الانجليزية فى المنطقة الاسلامية ، يجب ملاحظته ومراقبته •• •• وقد دل موته المفاجىء فى صيف عام ١٩٣٧ ــ سقط عند الموصل بيد مغتال ــ على أنه يوجد دائما بجانب القوى الديبلوماسية الرسمية فى ميدان حسم النزاع قوى أخرى يمكن الاستعانة بها ، اذا لم يستطع قيادة الخصم بالطرق الديبلوماسية واخضاعه على اتباع الخط المرسوم له •

كان «بكر صدقى» عدوا لانجلترا ومعارضا للسياسة البريطانية فى غرب آسيا ، فيعتبر موته بالنسبة لموقف انجلترا فى العراق تخلصا من عبء ثقيل ، وازالة لعقبة من العقبات التى توضع فى طريق المصالح البريطانية • من دفع القاتل ــ وهو عسكرى كردى عادى ــ الى ارتكاب جريمته ؟ سؤال لم يجد الجواب حتى اليوم ، فلم يتوصل الى أول خيوط الجريمة •

* * *

اتجهت أحداث النزاع بين انجلترا والقومية الاسلامية فى فلسطين اتجاها يغاير ما حدث فى العراق ، ويخالف أيضاً تقاليد السياسة الانجليزية التى تحاول بقدر الامكان أن تتفادى الصدام السافر مع القوى الوطنية بسلوكها أقل الطرق احتكاكا بها •

ففى وقت مبكر ــ وبالضبط أثناء الحرب ــ جاءت بريطانيا بحليف لها ضد العرب ، فعندما ظهرت القومية الاسلامية فى طابعها الجديد

أثناء ثورة العرب بقيادة « لورانس » وفيصل ، وأصبحت قوة لا يستهان بها ، استدعت بريطانيا الى الشاطىء الاستراتيجى المهم — وهو الجناح الشرقى الذى يحمى قناة السويس — حليفا يقف بجانبها ويساعدها ضد القومية الاسلامية التى أصبحت لها أخاديد فى المنطقة تثبت فيها ركائزها حين تقف فى وجه القوى الأجنبية ، وما أشدها صلابة وأصعبها مراسا حين تضع مطالبها الوطنية التى ليس لها حدود أمام زحف النفوذ الأجنبى فتوقفه ، وتحاول حمله على التراجع والرجوع الى حيث أتى ، استدعت بريطانيا حليفا الى ميدان النزاع ، فقد وجه وعد « بلفور » اليهودية العالمية فى طابعها الصهيونى الى حماية المصالح الانجليزية فى شرق قناة السويس ، والى الدفاع عن المطامع البريطانية ضد القومية العربية ، اذ أن وعد بلفور كان نداء لليهود لمساعدة الامبراطورية البريطانية فى هذه المنطقة ضد الثوار العرب ، فقد عرفت انجلترا القيمة الاستراتيجية لفلسطين ، فعندما شنت القوات التركية الألمانية هجومها على قناة السويس أدركت بريطانيا مدى الأخطار التى تهدد هذه المنطقة الهامة — فهى الطريق البحرى الى الهند — فى وقت الحرب ، اذا وقع الجانب الشرقى لقناة السويس فى حوزة — أو تحت رقابة — قوة أجنبية • وقبل أن تحتل بريطانيا هذا الشاطىء الاستراتيجى عسكريا لاح فى الأفق أن لندن قررت الدفاع عنه بعد غزوه بكل ما أوتيت من قوة ، وعزمت على تنفيذ مخططها الاستعمارى هناك دون أن تحيد عند قيد أنملة ، فلن تلجأ فى هذه المنطقة الى اتفاق يكون فيه تنازل من جانبها ، ولن تمارس هناك سياسة الطريق الوسط • فقد اقترح فى معاهدة « Seikes - Picot » تدويل فلسطين — وبذلك أقصيت المصالح الفرنسية عنها ، وانحصرت فى سوريا وينبغى أن تراقب انجلترا هذا التدويل — هكذا فهم من تفسيرات رجال الدولة فى انجلترا لمعاهدة « Seikes - Picot » •

كان دخول اليهودية العالمية الصراع الدائر فى فلسطين قوة وضعت بين مطالب القومية الاسلامية ومصالح الامبراطورية

البريطانية ــ يعنى أنها حجزت شدة ضغط القومية الاسلامية عن القوات الانجليزية ــ قوة أمسكت السياسة الانجليزية بعنانها ، فلم تتركها تجمح أو تشتط ، بل تركت لها حرية الحركة بقدر ما تنمو القومية العربية فى فلسطين ، فقد كانت لندن حريصة على وجود توازن بين القوتين • ففى السنين الأولى ــ التى وقع فيها الصراع مع القومية العربية ــ كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين قليلة جداً ، وكان القسم الــذى حدده الحلفاء لليهود لانشاء وطن قومى ــ تحقيقا لمــا جاء فى الوعد ــ صغيراً ، فحتى عام ١٩٣٠ لم يكن متوسط المهاجرين اليهود الى فلسطين أكثر من ٧٠٠٠ يهودى سنوياً ومن ناحية أخرى أصبح ــ ابتداء من عام ١٩٣٠ ــ استعداد القوميين الشرقيين فى بلاد ما بين النهرين وفى وادى النيل للدخول فى المعركة الدائرة فى فلسطين واضحاً ، فانطلقت التيارات المؤيدة للعرب فى فلسطين تهدر فى قنوات هذين البلدين لتعبىء الجماهير ضد انجلترا ، التى حاولت أن تجد طريقاً يحميها من هجمات القوميين ، فتفادت الصدام المباشر معهم • ومنذ ذلك الوقت ــ منذ عام ١٩٣٢ م تقريباً ــ تغيرت سياسة الهجرة اليهودية ــ التى انتهجتها بريطانيا ــ الى فلسطين تغييراً جذرياً ، ومالت لندن الى المحافظة على هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة فى المنطقة العربية بعد ما فشلت خططها لتأمين الجزء الواقع بين البحر الأبيض المتوســط والخليج الفارسى ، ففى عام ١٩٣٢ م بلغ عدد المهاجرين ٩٥٠٠ يهوديا ، وفى عام ١٩٣٣ م ، ٣٢٠٠٠ ، وفى عام ١٩٣٤ م أكثر من ٤٢٠٠٠ ، وفى عام ١٩٣٥ م ، ٦٢٠٠٠ يهودياً ، ثم بدأ انخفاض عدد المهاجرين فى عام ١٩٣٦ م ، اذ بلغ فى هذه السنة ٤٠٠٠٠ يهودياً ، ثم انخفضت أرقام عدد المهاجرين فى عام ١٩٣٧ م أكثر من هذا •

حقق نزوح اليهود الى فلسطين الأهداف التى أرادتها السياســة الانجليزية ، فقد اقتطع جزء من المنطقة العربية بالقوة •• •• جزء لم يعد القوميون العرب يستطيعون أن يمارسوا نشاطهم فيه ، فالمستوطنون فيه من جنس غير عربى • ذلك أن السياسة الانجليزية مهدت الطريق ــ

باعلان وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين — لاستيطان ما يقرب من نصف مليون فرد من جنسيات أجنبية فى منطقة يجب أن تبقى فيها — على أى الأحوال ، هكذا ترى لندن — مصالح بريطانيا الاستراتيجية ، وتمارس غزواً استعمارياً فى المناطق العربية بأى صيغة من الصيغ ، تحقق الهدف المرجو دون أن تحيد قيد أنملة ، وهكذا أدت السياسة الانجليزية — فى اتجاهها لانشاء وطن قومى لليهود — وظيفتها ، فحيث ألقت مصالح بريطانيا الاستراتيجية المرساة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، يعيش اليوم شعب يحاول اثبات وجوده أمام ووسط تزاحم القومية الاسلامية ودفاعها عن حقها فى الحياة وعن وطنها ، ولذا يحتاج الى صداقة انجلترا التى أتت به الى هذا المكان ، ليكون حليفها وصديقها ضد العرب • وقد أمن هذا الوضع رقابة انجلترا السياسية وسيطرتها العسكرية على هذه المنطقة الاستراتيجية — التى تعتبر مفتاح الشرق — فى شرقى البحر الأبيض المتوسط •

رسخت هذه الأوضاع — التى لم تقم بطريق مفاجىء ، بل امتد الاهتمام بها وخلقها سنوات طويلة — فى فلسطين وأصبح من الصعب تغييرها • • • ثم أبدت انجلترا استعدادها بمنح الجزء العربى — أى الذى ظل عربياً لم يدخل فيه اليهود — فى فلسطين حق تقرير المصير والحكم الذاتى • كذلك مالت الى التفاهم مع القومية الاسلامية حتى تحصر القوى المعارضة لها فى اطار ضيق ، ففى صيف عام ١٩٣٧ م وضعت الحكومة الانجليزية خططا تهدف الى تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية ، وعرضت تسهيل امكان تطوير الدولة العربية — التى يتحتم اتحادها مع منطقة شرق الأردن الواقعة تحت الانتداب البريطانى — بانشاء علاقة معها مماثلة لما طبق مع العراق : تحت مظلة السلم البريطانى « Pax Britannica » ، أما الدولة اليهودية فسوف تبحث فى اطار هذا الحل عن توطيد الصداقة مع انجلترا ، فهى واقعة تحت تهديد العرب المحيطين بها ، ولذلك فهى مضطرة الى أن تدنو — مجاوزة بذلك العلاقات التعاقدية — من القوة البريطانية ، ولن

يكون تقاربا تبيحه معاهدات بينهما ، بل أشد من ذلك ، اذ تفرضه حاجة الدولة الى الوجود واستمرار بقائها — فلو تحقق هذا لاعترفت الدولة اليهودية لبريطانيا بمركز يخول لها حق السيادة على الشاطىء الفلسطينى لتأمين مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة •

رفض مشروع تقسيم فلسطين من كل الأطراف ، فتعالت أصوات الاحتجاج ضده فى الدوائر اليهودية والعربية ، أما ديوان الحربية الانجليزية فقد رفضه دون أن يرفع صوتاً ، وكان رفضه رغم هدوئه حداً فاصلا فى عدم تنفيذه ، فقد استند الى أن ديوان البحرية يعتقد أن التقسيم المقترح لن يكون كافياً لتأمين المصالح البريطانية ، فاضطرت الحكومة الانجليزية أن توحى بالتصويت ضد المشروع عندما عرض على البرلمان ، ويرجع الفضل فى تدارك الأزمة فى اللحظة المناسبة الى توقيت رفض المشروع من جانب الحربية البريطانية ، الى أنه صدر قبل التصويت عليه فى البرلمان ، وهكذا ظلت المشكلة الفسلطينية بدون حل حتى اليوم ، وتبدو مطالب أطرافها متعارضة غير قابلة للتوفيق ، مما يجعل حل المشكلة صعباً ، بل يكاد يشبه المستحيل •

ان من الحقائق المؤكدة والمسلم بها اليوم دون خلاف ، أن فلسطين هى المنطقة التى اضطرت فيها القومية الاسلامية أن تصبر على هزيمتها الوحيدة — وان كانت هزيمة حاسمة حقيقة — فى نزاعها مع القوى الاستعمارية الأوروبية ، فقد أجبرت هنا على التضحية بمناطق تعيش فيها ، لأن مصالح الاستعمار الانجليزى استدعت ذلك ، وقامت بتنفيذه قوة وسلطان الامبراطورية العالمية ، ولكن السهم الذى استقر هنا فى الجسم الشرقى فجر دماء ، وأحدث آلاما ، وتسبب فى أن القومية الاسلامية التهبت — بسبب جرح هذا السهم — خارج حدود فلسطين ، ويزيد التهابها ويتكرر ، طالما ظل هذا السهم فى جسمها • وظهر هذا فى الرفض الجماعى الذى أثاره اقتراح التقسيم الانجليزى لهذا البلد فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، فقد اتفق المسلمون فى جميع الأقطار الاسلامية — اتفاقا يندر وجوده فى التاريخ — على معارضة

مشروع التقسيم ومناوأة السياسة الانجليزية فى فلسطين ، وبهـذا بدا للمراقبين السياسيين أن نصر الامبراطورية فى فلسطين — حسب التقديرات البعيدة المدى — أصبح أمراً مشكوكا فيه ، فلن يضمن مستقبلا مبشرا للمصالح البريطانية فى المنطقة •

* * *

ان أروع مثل للسياسة البريطانية — التى تؤثر تفادى السير فى الطريق المؤدية الى صدام مباشر مع القوميين ، وتميل الى الدفاع عن مصالحها بأقل صورة من صور الاحتكاك المباشر — هو تحركاتها على مسرح الأحداث فى مصر ، فهى تسترعى الانتباه بنوع خاص ، لأن أوتاد السلطة الانجليزية ثبتت فى مكان يعتبر — منـذ افتتاح قناة السويس وما أعقبه من الاحتلال البريطانى لمصر — بالنسبة لمنطقـة البحر الأبيض المتوسط وما وراءها نقطة استراتيجية هامة للدفاع عن الامبراطورية البريطانية كلها • وهذا ألقى على عاتق السياسة الانجليزية واجب ثقيل ، فهى ملزمة بتفادى مطالب القومية الاسلامية مع الاحتفاظ بمبادئها الاستعمارية التى ترسم لها ، وتخطط منذ عشرات السـنين ، ولا يكون ذلك الا اذا وجدت صيغة جديدة يتفق عليها ، تعطى الوطنيين المصريين الحرية التى يطالبون بها ، وفى الوقت نفسه تؤمن مصـالح الامبراطورية العالمية •

ظلت الديبلوماسية البريطانية سنين طويلة — امتدت الى عشرات السنوات — تبحث عن هذه الصيغة ، فلم تتوصل اليها ، الا عند ما لم يعد ضغط التوسع الايطالى — أثناء النزاع الأثيوبى على منابع النيل — أقل خطراً على مصر — وبنوع خاص على مصر المستقلة — وتهديـداً لها منه على انجلترا التى رأت أن ايطاليا الفاشية تهدد أمن طريقها الى الهند ، هذا الاشتراك — بين انجلترا ومصر — فى الوقوع تحت تهديد قوة ثالثة هيأ الجو — بسرعة وبصورة مباغتة — لتوجيه اهتمام لندن والقاهرة الى ناحية مشتركة • وجدت صيغة التفاهم — بعد ما استمر البحث عنه سنين طويلة دون فائدة — والعمل المشترك بين انجلترا

ومصر ، وتبلورت فى حلف « دفاعى » تحصل فيه مصر على حريتهـا الوطنية بجانب بريطانيا العظمى ، وكذلك أيضاً أمنها وسلامتها ــ وذلك ما تفتق عنه ذهن الدبيلوماسية البريطانية ، وأوهم مصر بضرورة العمل سويا من أجله ــ ضد الاستعمار الفاشستى الذى يهدد القومية المصرية فى الغرب والجنوب •

أصبحت القومية الاسلامية لأول مرة بعد الحرب قوة لها وزنها فى سير الأحداث السياسية فى مصر ، ولم يخف تكامل قوتها على أحد من المراقبين السياسيين • ويتضح ذلك عندما نلقى نظرة على سير الأحداث فى وادى النيل ــ بعد ما أعلنت انجلترا فى بداية الحرب الحماية على مصر ــ وبهذا أعطى للوجود الواقعى الموجود منذ مـدة طويلة الصيغة القانونية ــ بدا كما لو كان الاستعمار الانجليزى قد ثبت أقدامه الى ما لا نهاية على ضفاف النيل ، وكما لو كانت مصر ــ وهى البلد الذى يتمتع بمركز هام فى الشرق ــ قد ضمت دون معارضة وبقرار لا يمكن الرجوع فيه الى أملاك الامبراطورية العالمية باعتبارها قطعة أصـلية فى بناء الامبراطورية لا يمكن الاستغناء عنها •

أخرج اعلان الحماية البريطانية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ مصر من التبعية لتركيا ، كما جاء ذلك حرفياً فى وثيقة الحماية • وأعلنت حكومة جلالة ملك بريطانيا ، أنها ستتخذ كل الاجراءات للدفاع عن مصر ولحماية شعبها • وباعلان الحماية على مصر مالت لندن فى البلـد الواقعة على ضفاف النيل ــ لآخر مرة ــ الى سياسـة ضم الأراضى بالقوة ، مستوحية فكرتها من المبادىء الاستعمارية التى وضحت أمـام الشعوب • وصلت مصر الى الضعف المتناهى الذى يسبب الاغماء ••• ثم انقلبت عقارب أحداث النزاع الى الناحية الأخرى ، فقـد اضطرت مصر أن تتذرع بالصبر أثناء الحرب وهى تئن تحت السلطة البريطانية ــ التى فرضت نتيجة اعلان الحماية ــ وتشرب الذل كئوساً بدون انقطاع ، وتحمل المصريون ضغطاً ــ لا يحتمل ــ من السلطة الانجليزية ، ثم انفجرت مقاومة مصرية عنيفة أخرجت المخزون لديها طوال سـنين

الحرب من الحقد والكراهية لانجترا ، واندلعت فيه غريزة حب البقاء لدى الانسان المصرى الذى شعر أن حياته مهددة بالفناء • كانت هذه المقاومة هى ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة الزعيم الوطنى سعد زغلول •

ساق الانجليز الفلاحين المصريين أثناء الحرب — فى بادىء الأمر اقتصر على المتطوعين ، ثم امتدت يد السلطة فأخذت من هم فى سن الجندية عنوة — الى معسكرات العمل خلف خطوط الجنود البريطانية فى الحرب العالمية ، وكانوا يعاملون بقسوة شديدة ، اذ أنهم كانوا يساقون الى ميدان العمل كما تساق العبيد ، أرسل الفلاحون — الذين يفلحون الأرض على ضفاف النيل — الى أعمال السخرة فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين وفى منطقة القتال فى تسالونيكى ، وكذلك أيضاً الى مؤخرة جبهات القتال الفرنسية • وبلغت سرية العمال المصريين فى نهاية الحرب أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ فرد ، كان مستوى معيشتهم لا يزيد عن مستوى معيشة العبيد ان لم يكن أقل • وقد حدث هذا كله فى وقت أعلن فيه أن حق الشعوب فى تقرير مصيرها مبدأ أساسى ، لاقرار السلم فى العالم •

اشتد الضغط الانجليزى وبلغت قسوته الذروة ، عندما احتاجت قيادة القوات المحاربة الى حيوانات للركوب وحمل المؤن العسكرية ، وبدأت تستولى على حيوانات الفلاحين المصريين ، دون اعتبار للاحتياجات الاقتصادية وحالة العوز التى شملت مصر ، وبعد الاستيلاء على الحيوان قامت السلطات الانجليزية بمصادرة المواد التموينية وجمعها من الشعب بالقوة ، مما جر المواطنين الى حافة مجاعة شاملة ، كذلك أجبرت الادارة البريطانية المسلمين على دفع صدقات ، على صورة مساعدات تقدم للصليب الأحمر •• •• عندما وصل الأمر الى هذا الحد ، هيئت الظروف وتجمعت الأسباب — المادية والفكرية — لظهور رد فعل مصرى ضد الانجليز ، الذين بلغوا بأعمالهم أقصى حدود استغلال واذلال الشعب المصرى ، فالجو مشحون بالتوتر ، ويمكن أن ينفجر بسهولة فى أى لحظة •

غير أن بيان « ولسون » الذى أعلن فيه اعتراف حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وكذلك ما جاء — بعد ذلك بقليل — فى الصيغة الفرنسية الانجليزية — التى اعترف فيها أيضاً بحق الشعوب فى تقرير مصيرها — من أن مبادىء « ولسون » يمكن تطبيقها فى الشرق ، أعطى الوطنيين المصريين الاشارة بامكانية بدء المفاوضات •

فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ اتخذت الخطوات الأساسية التى مهدت للثورة المصرية — التى أصبحت مثالا يحتذى فى الشرق كله ، اذا اقتفى أثرها النضال الاسلامى ضد القوى الغربية — ، فقد أسس الوفد مجموعة من الرجال عقدوا العزم على قيادة الشعب الى طريق الحرية بعد أن يخلصوه من الوصاية الانجليزية •

اتجه سعد زغلول باشا مع اثنين من زملائه أعضاء الوفد الى المندوب السامى البريطانى « سير ريجنالد وينجت Sir Reginald Wingate » ليطالبوه بحرية مصر • وكان زغلول مستعداً فى بادىء الأمر أن يقبل بعض القيود على حرية مصر واستقلالها لضمان سلامة وأمن قناة السويس طبقاً لمفهوم انجلترا ، فاستقبل المندوب السامى سعد زغلول ومرافقيه ، وبهذا خطت انجلترا الخطوة الأولى الى الوراء أمام المواطنين المصريين ، لأن استقبال « وينجت Wingate » المندوب السامى فى ذلك الوقت للرجل الثورى سعد زغلول اعتراف رسمى من انجلترا بأن هناك بجانب الحكومة المصرية — التى تقف على قدميها برحمة ورضوان من لندن — قوة جديدة ظهرت فى مصر لتحدد مستقبل الشعب على أساس ارادته الذاتية وقوته الوطنية ، وكانت هذه القوة الجديدة تتمتع بتأييد شعبى كبير ، بدا ذلك فيما قامت به الجماهير أثناء محادثات سعد وصحبه مع المندوب السامى الانجليزى ، اذ كتبت عريضة بأنهم — أى سعد وصحبه — هم القادة الحقيقيون للشعب ، فوضتهم الأمة للمطالبة بحقها ، ووقع عليها فى الساعة الأولى عشرة آلاف مصرى •

تشددت بريطانيا — آنذاك — فى موقفها أمام مطالب الوفد

المصرى ، فتأكدت لندن من عداوة القومية الاسلامية واعتبرتها منافساً خطيراً لها فى مصر أيضاً ، وتبينت انجلترا خطورة هذا العدو فى اللحظة التى أرادت فيها أن تعيد « الهـدوء الى ضفاف النيل » بنفى زعيم الوطنيين سعد زغلول وأصحابه جميعاً الى خارج البلاد •

ففى ١٨ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل سعد زغلول ، وفى نفس اليوم اندلعت المظاهرات فى القاهرة ، وفى غضون أربع وعشرين ساعة عمت الثورة جميع أنحاء القطر المصرى ، وانفجر غضب الجماهير ضـد انجلترا ، لدرجة أن جميع القوات الانجليزية المرابطة فى مصر استدعيت للمحافظة على سيادة انجلترا على الموقف ، غير أنها لم تستطع اخمـاد نار الثورة الا بعد ثلاثة أسابيع من العمل العسكرى المتواصل •

ثم عـين الجنـرال « أللنبى Allenby » — الذى كان قائدا للعمليات العسكرية فى فلسطين أثناء الحرب — ليمثل السلطة الانجليزية فى مصر ، فجاء تعيينه تعبيراً عن موقف لندن الذى لم يزل يسـيطر عليه العقل الاستعمارى الذى يقدم على كسر ما يتعسر عليه تليينه وانطواؤه • لكن فكر مصر الحديثة لم يعد قابـلا للكسر ، وصلابـة زعمائها المناضلين من أجل حريتها تسندها جبهة شعبية عريضة لا تلين ، ولن تهدأ اذا ما أقدمت انجلترا على استعمال أى نوع من أنواع القوة ضد المطالبين بحرية الشعب المصرى ، والمناضلين من أجل الاستقلال ، فقد أعقب ثورة ١٩١٩ اضراب عام شل حركة الادارة كلها ، وأعطى الجنرال « أللنبـى Allenby » — وهو الرجل العسكرى — دليلا واضحا على أنه من الضرورى جدا التفاهم مع هذه القوى الوطنية ، التى ظهرت على مسرح السياسة فى مصر ، ويجب أن يؤخذ فى الحسبان أن اثارتها تعتبر خطورة على موقف انجلترا واستراتيجيتها على ضفاف النيل ، ولهذا طلب « أللنبى Allenby » من لندن قرارا حاسما يعترف فيه « بمبدأ حرية مصر » ، وقبلت الحكومة فى لندن نصـيحة ممثلها فى مصر بعد معارضة عنيفة استمرت وقتاً طويلا ، وبهذا خطت لندن خطوة أخرى الى الوراء ، وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ سـلم

« أللنبى Allenby » للسلطان المصرى مذكرة يعترف فيها باستقلال مصر مبدئيا ، مع أربع تحفظات — ولكن لم يكن هذا الاعتراف المبدئى عمليا ، اذ أنه لم يتعد الناحية الشكلية لصورة الدولة الرسمية — أوضحت مكامن خوف انجلترا وهى :

١ — تأمين طرق اتصال الامبراطورية البريطانية •

٢ — الدفاع عن مصر ضد الهجوم المباشر وغير المباشر •

٣ — حماية الأجانب والأقليات فى مصر •

٤ — مسألة السودان •

وبناء على هذه التحفظات تستطيع لندن أن تتدخل فى كل شئون مصر الداخلية والخارجية ، فقد تركت لها الباب مفتوحا تدخل من أى جانب شاءت اذا أرادت التأثير على مصر فى تحديد مسار سياستها فى الداخل والخارج ، وبقى المجال الذى ترك للوطنيين المصريين ليتحركوا فيه ضعيفا جداً ، لدرجة أنهم اضطروا الى الاصطدام بالحواجز الذى حددته وحجزتهم عن ممارسة سلطاتهم فيما وراءه • اعتقدت انجلترا أن الحل الوسط لمسألة الاستقلال أنقذها من ضرورة الاعتراف الواضح بمصر وبمطالب شعبها فى الحرية والاستقلال ، وتوقعت لندن نتيجة مماثلة لما حدث فى العراق ، أى أن الوطنيين فى مصر يقنعون بمظهر الحرية ، ولكن لم يتحقق هذا ، فقد ساعد الحل الوسط على افلات الزمام ، ولم يعد التحكم فى مجرى الحوادث فى يد لندن • فتصميم الشعب كان موجها الى المسألة برمتها ، والى طلب الجواب عن هذا السؤال : من سيد مصر ؟

لم تعط اتفاقية عام ١٩٢٢ حلا ، بل خلقت أساسا جديدا لاستمرار النضال بين قوى الغرب وقوى الشرق ، بين الاستعمار الانجليزى والوطنية المصرية ، ثم انتهى هذا النضال بتراجع انجلترا النهائى فى مسألة استقلال مصر • فالصيغة التى وجدت أخيراً لانهاء الصراع الانجليزى المصرى تحمل — مرة أخرى — الطابع الخاص لموقف بريطانيا العظمى السياسى فى الشرق الاسلامى عموماً ، اذ احتوت

على نفس المبادىء التى ميزت اتجـاه الدبلوماسية الانجليزية فى أفغانستان وايران والعراق :

١ ــ التفاهم مع القوى الوطنية بحيث تحصر مقاومتها فى أضـيق الطرق •

٢ ــ التنازل عن المطامع الاستعمارية التى تحكمت ، ووجهت سياسة بريطانيا فى القرون المـاضية فى ضم المناطق المستولى عليها الى المستعمرات البريطانية •

٣ ــ تحديد المطالب الانجليزية بتأمين مصـالحها الاقتصـادية وتأمين خطوط مواصلات الامبراطورية العالمية •

أرغمت الأطراف المتنازعة ــ الانجليز والقوى الوطنية فى مصر ــ على التوصل الى تفاهم يكون مرضيا للجميع ، لأن زحف الاسـتعمار الفاشستى فى الشرق يهدد آمال القومية الاسلامية وجهادها للحصول على حرية المنطقة واستقلالها ، كما يهدد طرق المواصلات الانجليزية الى الهند • فتحت ضغط هذا الخطر ــ الذى جد فى المنطقة ، وهدد المتنازعين ــ تحول الأعداء على ضفاف النيل الى متحالفين ، فحلت المعاهدة الانجليزية المصرية ــ التى عقدت فى عام ١٩٣٦م ــ محـل اتفاقية عام ١٩٢٢ م التى قيدت بالتحفظات الأربع ، ونالت مصر بهذه المعاهدة الجديدة اعترافا كاملا ــ غير مشروط ــ بحريتها •

حـدث هذا تحت ظلال الحرب الأثيوبية وانتصـار ايطاليا على « نيجـوس Negus » ــ لقب امبراطور أثيوبيا ــ اذ اعتبر المصريون هذه الأحداث انذار خطر يهدد سلامة أمن بلادهم •

تعتبر هذه المعاهدة ــ من ناحية ما احتوته من بنود ــ اتفاقا خضعت له النزعات الطبيعية والتقاليد الموروثة لكلا الجانبين ، فهى تحرر مصر من كل ارتباط أو وصاية مباشرة ، وتضع الدولة الاسلامية الحديثة ــ وهى مصر ــ فى حلف أبـدى مع انجلترا التى احتفظت بحق مرابطة قواتها على طول قناة السويس لحمايتها ــ حددت مدة وجود القوات

البريطانية بخمس وعشرين سنة — حتى تبنى مصر جيشها ويكون فى حالة تمكنه — كحليف لانجلترا — من الدفاع عنهـا وعن حـرية مصر أيضا •

حصل استقلال مصر — الذى اعترفت به انجلترا — على اعتراف دولى فى مؤتمر « مونترو Montreux » الذى قرر فيـه — باتفـاق عالمى — الغاء الامتيازات القانونية والادارية — التى تمتعت بها القوى الأوروبية فى مصر — بعد مضى فترة انتقال محددة • أصبحت قرارات هذا المؤتمر ، وكذلك قبول مصر عضواً فى عصبة الأمم رمزاً للتراجع الذى اضطرت اليه القوى الأوروبية فى الشرق الاسلامى منذ نهايـة الحرب ، فأمام ممثل الدول الاسلامية تنازل سفراء كل القوى الغربية — مختارين تعلو البسمة وجوههم — عن الامتيازات التى أخذوها ، عندما غزت أوروبا الشرق واقتحمت عليه دياره ، والتى ظلوا يتمتعـون بها ويدافعون عنها زمناً طويلا ، فقد رفض رسمياً مبدأ تفوق الجنس الأوروبى على الشرق الاسـلامى فى مؤتمر « مونترو Montreux » وفى قاعات عصبة الأمم فى جنيف ، وأعلن مبدأ التعاون والعمل المشترك بديلا له ، وعمل مشترك مع تساو فى الحقوق •

* * *

الى متى سيظل مبدأ العمل المشترك — المشـار اليه — معترفـا به فى الشرق ؟

والى متى سيظل خط دفاع الدول الغربية تجاه الشرق الزاحف مركزاً اهتمامه على أساس هذا العمل المشترك ؟

قام فى شبه الجزيرة العربية — منبع الاسلام ووطنه الأول وفيها الأماكن الاسلامية المقدسة — دولة عربية كبرى ، أطلق عليهـا المملكة العربية السعودية أسسها ابن سعود — بعد نضال دام عشرات السنين — الذى يعتبر اليوم ممثل الاسلام وزعيم القـوة العالميـة الاسلامية فى المستقبل •

تصرفت انجلترا تجاه هذه المملكة العربية الكبرى ، طبقاً لمبدئها فى المحافظة على مصالحها عن طريق حصر مقاومة الوطنيين — أو معارضة من بيدهم مقاليد السلطة الوطنية — فى اطار ضيق ، والاقلاع عن كل الأطماع الاستعمارية التى تستهدف ضم مزيد من المناطق الى خريطة المستعمرات البريطانية ، لهذا انحصرت علاقة لندن ومطالبها لدى ابن سعود على تأمين طرق مواصلات الامبراطورية ، ولما كانت مصالح البلدين — العربية السعودية وبريطانيا — هنا متوازية ، فقد دب الحماس فى كل من لندن والرياض لقبول مبدأ المحافظة على عدم تمكين أى قوة أوروبية من فرض سيطرتها على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر •

التزمت انجلترا بهذا المبدأ ، فلا ترتكب اليوم — بعد تنازلها عن كل الأطماع الاستعمارية ، ونبذها فكرة اقامة مستعمرات بريطانية — عملا يصطدم مع هذا المبدأ ، باستثناء تصرفاتها فى الهند — فى أى مكان فى العالم الاسلامى ، فهى لا تطلب سوى اتخاذ الاجراءات الضرورية لتأمين طرق المواصلات العالمية للامبراطورية وحماية المصالح الاقتصادية ، ولما كانت الدول الاسلامية الحديثة خلواً من الرغبات الخاصة فيما يتعلق بالملاحة ، وليس لديها خطط تعارض بها مصالح الامبراطورية البريطانية فى شئون المواصلات البحرية ، فعلاقة لندن بالعالم الاسلامى محتملة ، ان لم نقل انها علاقة صداقة ، وحيث تستمر انجلترا فى ممارسة السياسة الاستعمارية — كما فى السودان مثلا — تشرك معها — بطريقة ماكرة — القومية الاسلامية ، فلم يحدث فى مشكلة السودان أن اصطدمت القومية الاسلامية ، بالاستعمار الانجليزى ، اذ نزلت هنا الوطنية المصرية ساحة الغزو الاستعمارى وتزاحمت — بقصد استعمارى — مع الامبراطورية البريطانية •

صفت انجلترا فى كل مكان فى العالم الاسلامى — باستثناء فلسطين — حسابها ، فقد شهدت العشرون سنة التالية للحرب عملية تقلص النفوذ البريطانى الذى كافحت الدبلوماسية البريطانية قبل الحرب فى بسطه

على المنطقة ، وساندتها فى ذلك قواتها المسلحة ، فنبذت فكرة ضم الأراضى بالقوة ، وطرحت جانباً سياسة الانتداب والوصاية على الشعوب ، وحل محلها التفاهم المتبادل والمصالح المشتركة ، والتعاون فى مجالات العمل المختلفة ، وتبذل الآن جهود جبارة فى هذه النواحى تتسم بالادراك الحكيم ، وفهم وتقدير قوى الثورة الاسلامية لتفادى أى نوع من الصدام معها ، ولتجنب مقاطعة القوة العالمية الاسلامية ، التى يزداد نموها يوماً بعد يوم ، فهناك حرص شديد على الاتصال بنشاطها للتعرف على اتجاهاتها وخططها •

* * *

لم تكن السياسة الفرنسية مرنة فى أسلوبها مرونة السياسة الانجليزية ، ولم تقبل فكرة تغيير الخط الاستعمارى — الذى انتهجته القوى الأوروبية فى القرون الماضية — ولا التعديل فى مبادئه الأساسية كما فعلت السياسة الانجليزية بعد الحرب ، فقد ظلت فرنسا متصلبة فى آرائها ومتشددة فى موقفها مع القوى الثائرة فى المناطق التى بسطت نفوذها فيها ، واصطدمت مع القوى الاسلامية صداماً دموياً عنيفا •

وقع أول صدام مع فرنسا نتيجة النزاع مع القوميين الأتراك ، فقد استندت فرنسا الى معاهدات التقسيم — وهى متعددة — فادعت — بعد انهيار السلطنة التركية الكبرى — حق الاستيلاء — بجانب ما أعطته لها معاهدة « Seikes - Picot » من المناطق العربية — على :

١ — لبنان •

٢ — الشريط الساحلى فى شمال سوريا •

٣ — المنطقة المسماة « Zilizien » — الواقعة بين المنحنى الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين طوروس — بأقاليمها المهمة : آطنة ومرسين •

٤ — جزء من وسط الأناضول يضم ولايات سيواسى و « خربوط Kharput » [1] وديار بكر •

---

(١) ليست « خربوط » اسم الولاية بل عاصمتها ، واسم الولاية هو : « معمورة العزيز » (م . ش) •

ثم حاولت تنفيذ دعواها بالقوة المسلحة ، فتلقت القوات الفرنسية المعادية عدداً من الضربات العنيفة فى مايو ١٩٢١ ، ونزلت بها هزيمة نكراء ، أجبرت القادة الفرنسيين — حين رأوا بأعينهم الدماء التى سالت دون فائدة ، وفقدان الروح المعنوية فى صفوف قواتهم ، وعدم اهتمام الجنود بفائدة الحرب التى يقودونها ضد الأتراك — على الموافقة على عقد اتفاقية الهدنة التى وقعت فى أنقرة فى ٣٠ مايو سنة ١٩٢٠ ، ثم استكملت — بل استبدلت — بمعاهدة ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢١ م ، التى أخرجت الفرنسيين نهائياً من ساحة النزاع مع الوطنيين الأتراك • فانسحبت القوات الفرنسية من مناطق الأناضول التى كانت تحتلها ، ورجعت الى خط بغداد الحديدى فى القسم الواقع بين الاسكندرونة — حلب — نصيبين • وضعت معاهدة أنقرة — التى عقدت فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٠ — الأسس التى ارتكزت عليها مباحثات تنظيم الحدود بين تركيا وسوريا الواقعة تحت الانتداب الفرنسى • وتنازلت فيها أيضاً عن كل الأطماع الاستعمارية فى المنطقة الوسطى من اقليم الأناضول •

قرر مؤتمر « سان ريمو San Remo » فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠ م اسناد الوصاية (الانتداب) على سوريا لفرنسا وتفويضها تفويضاً نهائيا فى شئون المنطقة السورية ، فقام نزاع دموى بالغ الحدة مع القومية الاسلامية ، لأن الفرنسيين حاولوا هنا — حيث يعيش شعب متحضر قطع شوطا على طريق الحضارة ويعى الأحداث الدولية بفهم وتجاوب — أن يطبقوا ذلك الأسلوب الادارى الذى استعملوه فى مستعمرات شمال ووسط افريقيا قبل عشرات السنين ، فوقعت مصادمات عنيفة بين قوى الانتداب الأوروبية وبين القومية العربية •

بدأ القتال حول سوريا بحملة ضد الملك فيصل الذى زحف الى دمشق ، بغية تأسيس المملكة العربية المستقلة التى وعدته بها — وبتعبير أدق وعدت أباه حسينا — انجلترا فى المنطقة السورية • حققت الحملة نجاحا ساحقا — فى القضاء على فيصل وآماله — لأن التفوق العسكرى للقوات الفرنسية على كتائب المتطوعين العرب — التى نظمت تنظيما

سيئا ، وحاربت بأسلحة بدائية — حدد مصير المعركة ، وضمن لفرنسا نصراً مؤكداً ضد فيصل .

وعندما بدأت فرنسا — بعد طرد فيصل — تهيىء نفسها للاستقرار في سوريا اتجه طموحها — في اتجاه مضاد لما ينبغي أن تقوم به كدولة تباشر سلطة الانتداب على منطقة أجنبية عنها — الى تحطيم القوى السورية التي اهتمت ببث الروح الوطنية بين أفراد الشعب وتهيئته للحكم الذاتي ، وكان عليها أن تشجعها وترعاها ، ففرنسا لم تعتبر واجبها في سوريا على أنه أمانة وضعت في عنقها وهي تهيئة الشعب لحكم نفسه بنفسه ، بل نظرت الى سوريا على أنها مستعمرة فرنسية يجب أن تذوب في تقاليد تلك المستعمرات . استندت السلطة الفرنسية على السلاح ، واعتمدت على القوة العسكرية في الضغط على سوريا والنزول بها الى مستوى مستعمراتها ، وهكذا توقعت فرنسا أن تصبح سوريا جزءاً لا ينفصل عن امبراطورية المستعمرات الفرنسية ، وطبقا لهذه السياسة حلت أوصال الوحدة الادارية للبلاد ، على أمل أن تحطم بهذا — في نفس الوقت — القوى المناهضة للأطماع الفرنسية وتضعفها ، بحيث لا تستطيع الثورة ضد ما تخطط له الدبلوماسية الفرنسية . ولكن الضغط يقابل دائماً بضغط مضاد ، يتخذ صورة مقاومة ، تشتد أحيانا وتتحول الى صدام مسلح ، فبقدر ما كان الجبروت العسكري الفرنسي يجثم على صدر البلد ، ويزداد صلفا وعتواً كانت تنمو — كرد فعل — القوى الوطنية السورية ، التي اندلعت نيرانها بركانا يهدر في ثورة عام ١٩٢٥ م . ابتدأت الثورة أولا بين الدروز ، ثم امتدت الى دمشق ، وسرعان ما عمت جميع الأقاليم السورية كلها .

سحبت فرنسا قوات من مراكش ومن السنغال ، وأرسلتها الى سوريا ، فألقت بها في النار التي أشعلها الوطنيون . استمرت القوات الفرنسية تقاتل شهوراً ضد الثوار حتى أخمدت نار الفتنة وأعادت الهدوء مرة أخرى الى البلاد . لكنه كان هدوءاً أقرب الى السكون الذي يخيم على القبور منه استقراراً وأمناً .

بعد ما ظهر — ظهوراً جلياً — فشل محاولة تطبيق الأسلوب الاستعمارى الفرنسى فى سوريا ، خطت فرنسا — عقب القضاء على ثورة الدروز فى عام ١٩٢٥ م — خطوات حذرة وبطيئة نحو تغيير الادارة العسكرية القاسية والسلطة الصارمة ، فقد وصل الى دمشق حاكم مدنى هو « هنرى دى جوفينال Henry de Jouvenal » وتبين بسرعة الأخطاء الأساسية للسياسة الفرنسية ، وحاول أن يستخلص من هذه الاستنتاجات التى ترشده الى رسم سياسته المقبلة ، فبذل جهدا كبيراً لتخليص السياسة الفرنسية فى سوريا من اتجاهاتها الاستعمارية ، وتحريرها من تسلط أفكار الغزو والبطش التى قادتها الى الصدام الدموى مع الوطنيين ، ثم تخطيط ورسم مسارها فى اطار واجهات الانتداب التى اضطلعت به فرنسا ، وأراد بذلك وضع الأسس وخلق الظروف التى تهىء البلاد لحكم ذاتى فى المستقبل ، وتحويل فرنسا الى صديق لسوريا صداقة عميقة تمتد الى ما بعد زمن الانتداب • فاتخذ السياسة التى انتهجتها انجلترا فى العراق نموذجا له يحاول تطبيقه فى سوريا ، ولهذا وضع مشروع معاهدة تنظيم العلاقة السورية الفرنسية فى اطارها ، تتمتع سوريا ببعض الحرية تحت الاشراف الفرنسى • غير أن باريس رفضت مشروعه لأنه موجه « ضد مبادىء السياسة الفرنسية فى المستعمرات » فاضطر « دى جوفينال de Jouvenal » أن يترك منصبه • تخبطت فرنسا فى ظلمات ، فلم تتضح أمامها صورة الزحف الوطنى الذى عم سوريا ، كما كان فى كل أجزاء العالم الاسلامى ، بل هو أعنف وأقوى فى المنطقة السورية منه فى الأقطار الأخرى فى الشرق الاسلامى •

كلفت باريس « بونست Ponset » — الذى خلف « دى جوفينال de Jouvenal » — أن ينهج سياسة معارضة لسياسة سلطة « الليبرالية » فنتج عن ذلك بقاء سوريا — بعد فشل محاولة التفاهم غير الناضجة مع الوطنيين السوريين — ثلاثة عشر عاما تحت الانتداب الفرنسى ، دون أن يكون لها دستور ، ودون ابرام معاهدة تنظم

الشئون الوطنية — بما فيها العلاقات الدولية — مع سلطة الانتداب ، وظلت البلد عند مستوى المستعمرات الفرنسية • وفى عام ١٩٣٦ م تسبب الضغط الفرنسى — الذى لا يطاق — فى هذا البلد الجريح فى قيام القوى الوطنية السورية باشعال نار الثورة الثانية ضد الحكم الفرنسى، فتكررت المأساة الدموية لعام ١٩٢٥ م • بدأت الثورة فى دمشق ، ثم تدفق تيارها بسرعة البرق عبر الأقاليم ، فأصبحت سوريا فى غضون أيام قليلة شعلة من النار ، فحشدت فرنسا ثلاثة آلاف جندى ماون من قوات المستعمرات ضد الشعب الثائر ، ونزلت الدبابات والعربات المصفحة الى المدن والقرى لاخماد نار الثورة ، ومرة أخرى أحرز تفوق السلاح الفرنسى النصر ولكنه ظاهرى فقط ، انكسرت حدة الثورة ، ولكن لم يقض على ارادة المقاومة — ضد القوات الفرنسية الاستعمارية — التى أخذت أسلوب الاضراب العام ميدانا جديداً لمناهضة السلطة الفرنسية ، فهزت مركز البلد الاقتصادى ، كما أصابت مركز الحكومة فى باريس بطعنة فى أهداف سياستها فى سوريا •

أبدت فرنسا — فى أوائل ١٩٣٦ م — استعدادها للتفاوض فأعلنت أنها تريد عقد معاهدة مع سوريا على غرار المعاهدة الانجليزية العراقية ، وبهذا الاتجاه تغير الموقف الفرنسى تجاه الوطنيين السوريين تغييرا جذريا ، وسلمت باريس بتوقيع المعاهدة — فى سبتمبر ١٩٣٦ م بعد وقت طويل من المباحثات — التى أخرجت سوريا من دائرة الانتداب ، وان كانت لم تمنحها اطلاقا الحرية التى سالت من أجلها الدماء ، وراح ضحية المطالبة بها أرواح عديدة من الوطنيين ، الا أنها سهلت الطريق الموصل الى تلك الحرية ، وبهذا المعنى نالت المعاهدة أيضاً موافقة الوطنيين السوريين • فقد قال رئيس الوفد السورى فى المباحثات « حكيم بك الأتاسى » معقباً على المعاهدة : « لم تكن المعاهدة التى عقدناها مع فرنسا تحقيقاً لآخر أهدافنا الوطنية ، ولكنها وسيلة لتحقيق آمالنا • انها تفتح أمامنا طريقاً طالما بحثنا عنه للوصول الى استقلال كامل ،

استقلال غير مشروط وغير مشوب بالتحفظات ، وهو الذى كافحنا من أجله منذ خمسة عشر عاماً .. فاذا قاوم بعض اخواننا الوطنيين المعاهدة بعنف شديد ، ووصفوها بأنها خيانة للمسألة السورية ، فقد غفلوا عن الحقيقة وعن الظروف الصعبة التى أجبرتنا على المباحثات .

ان المعاهدة التى توصلنا اليها تتيح لنا امكانية أن نشبع رغباتنا الوطنية وآمالنا القومية الى أبعد الحدود ، وسنسير فى الطريق على قدر ما لنا من قوة لمواجهة المصاعب ، فلم نحصل على استقلالنا بهذه المعاهدة ، ولكن سوف نصل الى هدفنا الأخير بالمشاورات — التى عبأت لها المعاهدة — والخطط ، سوف نصل الى الهدف الذى كنا — ولا زلنا — مستعدين للكفاح من أجله حتى الرمق الأخير ، وهو حرية سورية » .

ففى هذا التفسير للمعاهدة السورية الفرنسية تنعكس الصلابة والتشدد اللذين أجابت بهما القومية الاسلامية عند تحديد مركزها تجاه الاستعمار الغربى ، اذ هو — أى التفسير — يعيد الى الأذهان أنه لا يوجد أحد فى المنطقة الاسلامية يرضى بأى حال من الأحوال بمظهر الحرية ، ويحاول الاكتفاء بهذا المظهر عن الحرية الحقيقية ، فالدعوة الاسلامية الى الحرية لا تعرف الحلول الوسط ولا تقبل شيئاً مقيداً بشروط ، والداعون اليها مستعدون للكفاح والنضال الى أن تتحقق ... حرية كاملة غير مقيدة ولا مكبلة بشروط ، أياً كان نوع هذه الشروط .

اعترفت باريس — بعد توقيع المعاهدة السورية الفرنسية ببضعة أسابيع — للبنان بحق ابرام معاهدة مماثلة ، وهكذا حدد الوقت هنا أيضاً للاستعمار الفرنسى ، وتقلص مركز السلطة الفرنسية تقلصاً شديداً ان لم يكن قد انكسر وأخذ طريقه نحو الزوال ، فى حين حصلت القومية الاسلامية — بعد سنين طويلة من الصراع الدموى — على نصر مبين لا يقل أهمية عن نصرها فى مصر وفى العراق .

* * *

سوف تكون عاقبة الأحداث التى تجرى اليوم فى المستعمرات الفرنسية فى شمال افريقيا — تونس والجزائر ومراكش — أشد صرامة

وأقوى عنفاً تجـاه مركز القوى الأوروبيـة من التراجع الفرنسى فى سوريا ولبنان الذى لمـا تظهر نتائجه ولم تعرف آثاره بعد ، اذ يبدو هنا — فى شمال افريقيا — أن شعوب المستعمرات التى ظن أنهـا أصبحت فى حوزة الأوروبيين ، ولن تنفصل عن سلطانهم أبدا ، بدأت تتحرك ضد الاستعمار الفرنسى ، فيطالب زعماؤها فرنسا بمنح هذه الشعوب حقوقاً ، لو أعطتها فرنسا لهم لكان معنى ذلك ضياع السيطرة الاستعمارية فى شـمال افريقيا وخروج هـذه المنطقة من النفوذ الفرنسى •

ففى الفترة التى كانت مراكش غير خاضعة فيها خضـوعا كليا للسيطرة الفرنسية — وذلك فى أيام الثورة التى نشبت فى الشـمال الغربى من مراكش فى عام ١٩٢٦/٢٥ — ظهرت فى الجزائر الحركـة الأولى ضد السلطة الفرنسـية ، فقد كانت الجزائر حتى ذلك الحين المنطقة الاسلامية التى تعيش تحت حكم المستعمر الأوروبى فى هدوء وسلام ، لا تعكره حركات الوطنيين ، لأن المهاجرين الأوروبين — الذين يمثلون ١٥٪ من مجموع السكان — ساندوا سلطة فرنسا ، وحموها من السكان الأصليين البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة ، خاصة وأن طبقاتهم قد جردت من الزعماء ، وأقفرت من العناصر القيادية ، لدرجـة أنه أصبح من غير الممكن قيام هذا الشعب بثورة ضد المسـتعمر الأوروبى • نعم ! وعدت فرنسا العرب فى الجزائر أثناء الحرب باصـلاحات سياسية ، ولكن لم تفكر باريس فى فرحة النصر أن تفى بهذا الوعد ، وظن رجال السلطة الفرنسية فى فرساى أن العـرب لن يجـرأوا على مجرد تذكر الوعد الذى التزمت به فرنسا أمامهم قبل الحرب •

عاد الجنود الجزائريون من جبهات القتال فى شمال فرنسا الى بلادهم ، وهم يحملون أفكار « ولسون » ومبادئه التى اعترفت بحق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها ، وقربت المسافة بين الرجل الأبيض والملون • ولكن كانت تساورهم الشكوك فى أخذها مأخـذ الجد ، ويعتريهم شعور داخلى بأن أثرها لن يتعدى ما خط على الورق ، وبث

على موجات الأثير • غير أنه لم يظهر أثر مباشر لهذا التفاعل الداخلى بعد الحرب ، لأن البلد كانت تمر بفترة انتعاش اقتصادى قائم على أساس غير سليم ، فلم تزل فرنسا مخربة مدمرة ، وتصدر اليها الجزائر منتجاتها الزراعية ، وتحاول جاهدة أن تزيد من الانتاج لأن السوق الفرنسية تطلب المزيد ، فاتجه الجزائريون الى استعمال الآلات التى شـــاهدوها فى أوروبا أثناء الحرب لزيادة الانتاج ، فارتفع ربحهم وتحسنت أحوالهم المعيشية •• ثم تسبب هذا التحول المفاجىء فى الوضع الاقتصادى فى احداث مضـــاعفات خطيرة دفعت الى ظهور الحركة السالفة الذكر فى شتاء ١٩٢٦/٢٥ م •

كان السبب الظاهرى لهذه القلاقل التى ظهرت فى « جذع شجرة المستعمرات » الفرنسية ، هو المسألة الاقتصادية وسياسة فرنســـا التجارية تجاه الجزائر ، فأثناء الفترة التى تضاعفت فيها واردات فرنسا من شمال افريقيا ، ودفعت فى المنتجات الزراعية أسعارا عالية اقترضت الجزائر وتونس — واقتصادهما يعتمد على الزراعة — قروضا كبيرة ، اشترت بها آلات ميكانيكية لتطور بها أسلوب الزراعة حتى تفى بتلبية الطلبات المستمرة للوطن الأم فرنسا ، وفى اللحظة التى استكمل فيها اعادة زراعة الأراضى فى شمال فرنسا ، وأصبح الفلاحون الفرنسيون وأصحاب مزارع الكروم فى وضع يمكنهم من توريد المحاصيل الزراعية وثمار العنب ، طالبوا بتخفيض الواردات الزراعية من شمال افريقيا ، فأجيب طلبهم فأدى هذا التخفيض الى انهيار اقتصادى فى شـــمال افريقيا ، والى كارثة مضاعفة ، فالالتزامات — التى فرضـــها التحول المفاجىء فى الوضع الاقتصادى — لم يعد فى الامكان الوفاء بها ، فاضطر كثير من الناس الى رهن ممتلكاتهم ، وزاد عدد المزادات العلنية التى تباع فيها هذه الممتلكات وفاء لحق الديون زيادة كبيرة أفزعت الجماهير والسلطات ، فاضطرت الحكومة الى اتخاذ قرارا بقيام الدولة بدفع مساعدات مالية مع تأجيل الأقساط المستحقة الدفع الى أجـــل طويل •

انهار الاقتصاد الوطنى ، فتحرك أول احتجاج سافر ضد سلطات الحكم الفرنسى ، ففهم المراقبون السياسيون فى باريس — وكذلك أصحاب السلطة فيها — أن السبب الأول والأخير هو الأزمة الاقتصادية وقيموها تقييما خاطئاً ، وغاب عنهم أن الأزمة الاقتصادية كانت فقط سبباً ظاهريا — انطلقت منه الثورة — اختفت وراءه المشكلة الكبرى البعيدة الأفق التى هى مشكلة كل المستعمرات فى الشرق الاسلامى •

تكشفت الأمور ، وبان الوجه الحقيقى لها فى طيات تسلسل الأحداث ، اذ ظهرت مطالب سياسية للثوار — وكثيراً ما تعقبتهم السلطات بحشد المزيد من القوات العسكرية والعتاد الحربى — بعيدة كل البعد عن الأزمة الاقتصادية بل لا صلة لها بهذا المجال اطلاقا •

كان خطيب الثورة والمتحدث باسمها ، هو الطبيب الدكتور بن جلول • ولد عام ١٨٩٥ — أى أنه طبيب ينحدر من جيل عصر الحرب — درس الطب فى الجزائر ، ثم فتح عيادة له فى القسطنطينية ، وسرعان ما اكتسب هناك شهرة بين بنى وطنه العرب ، دفعته الى أن يغلق عيادته الطبية ويمارس نشاطه فى ميدان الكفاح السياسى ، فهيأت له قدرته الفائقة فى الخطابة والتحدث الى الجماهير كسب كثير من المستمعين والأتباع ، ثم اتجه الى جمع الجهود الوطنية فى مركز واحد ، فأسس « Fédération des élus Musulmans » الجبهة الاسلامية ، ورشح نفسه مع مجموعة من أعضاء الجبهة فى الانتخابات ، فغزا الدكتور بن جلول وأصحابه بسرعة فائقة المقاعد والوظائف القليلة المخصصة للجزائرين العرب ، فأتاحوا بذلك فرصة جديدة للجبهة العربية الواسعة ، تمكنهم من مواصلة السير فى طريق الكفاح السياسى الذى كانت الأزمة الاقتصادية طلقة الانطلاق فيه • ففى عام ١٩٣٣ م سافر الدكتور بن جلول الى باريس وطلب مقابلة وزير الداخلية آنذاك « Chautemps » فرفض طلبه ، وبهذا تضاعفت حدة الأزمة ، وازدادت العلاقة سوءاً بين الحكومة الفرنسية وبين الجبهة الوطنية الجزائرية ، اذ عندما عاد بن جلول الى وطنه ، أعلن مطالبه على

الجماهير ، ونشر ما كان يريد أن يقوله فى المكتب الرسمى لوزير الداخلية الفرنسى ، فقد طالب بمنح الجزائريين الحقوق السياسية والمدنية التى يتمتع بها المواطن الفرنسى ، واستند فى هذا الى سابقة حدثت بعد حرب ١٨٧١/٧٠ م مباشرة فقد سمحت فرنسا آنذاك لليهود المقيمين فى الجزائر « en bloc » بممارسة الحقوق السياسية والمدنية التى للمواطن الفرنسى ، معللة ذلك بقبول اليهود اللغة الفرنسية لغة تخاطب بينهم ، وأنهم اندمجوا اندماجا كلياً فى المجتمع الفرنسى ، فعدلوا عاداتهم وتقاليدهم تبعا لذلك ، وليس فى دينهم شىء يتعارض اطلاقا مع المدنية الفرنسية ، ولهذا فهم قابلون للذوبان فى المجتمع الفرنسى •

استنادا الى هذا الذى حدث قبل أكثر من خمسين عاما ، طالب بن جلول بمنح الحقوق السياسية والمدنية — التى يتمتع بها المواطن الفرنسى — للمناطق الآهلة بالسكان العرب ، التى تمثل الأغلبية الساحقة فى الجزائر ، غير أن الجزء الأكبر من المناطق العربية يعيش عيشة بدائية ، اذ لا يملك ذرة من معالم الحضارة ، ومستوى المعيشة فيه لا يختلف عن مستوى المعيشة فى المستعمرات الفرنسية التى تمارس فيها سياسة باريس الاستغلال والاستنزاف الاستعمارى ، ولا تعنى اطلاقا بتربية الشعب وتثقيفه •

فجرت مطالب بن جلول المشكلة على أوسع نطاق ، وتحاول الحكومة الفرنسية من ناحيتها الابقاء على الوضع كما هو ، فلن تسمح باعطاء الحقوق السياسية والمدنية للشعب العربى الذى يبلغ تعداده بضعة ملايين ، لأن معنى ذلك — أى نيله هذا الحق — تفوقه من الناحية العددية على المهاجرين الفرنسيين واليهود الجزائريين معا ، فيقضى على كل نفوذ فرنسى فى الادارة الجزائرية • نعم ! كان هناك موظفون جزائريون من الجنس العربى فى الوظائف الادارية المحلية ، ولكنهم لم يصلوا الى مراكزهم عن طريق الانتخاب ، بل كان يختارهم الحاكم الفرنسى ، لذلك اضطر هؤلاء الموظفون — وكذلك عدد قليل من العرب تولوا القيادة فى المراكز المتوسطة والعالية فى السلم الوظيفى — الى

أن يتفرنسوا — أى يذوبوا فى المجتمع الفرنسى — أما غيرهم من المواطنين الجزائريين فقد استحال عليهم التمتع بالحقوق السياسية والمدنية • عارض بن جلول هذا الوضع ، وطالب بالحقوق الطبيعية للعرب « en bloc » أسوة بما حصل عليه اليهود قبل خمسين عاما •

رفض السياسيون المتطرفون — من الجناح اليسارى — فى فرنسا هذه المطالب بعد اعلانها مباشرة ، لأن الموافقة عليها يتلوها عواقب ليست مرئية اليوم ، فنقل السلطة السياسية فى الجزائر ينذر بالخطر ، وينبىء بحدوث تعقيدات لا حل لها ، اذ يجب على المرء أن يسلم بأن يمارس رعايا فرنسا تعدد الزوجات ؛ وأن يقبل تطبيق التشريع الاسلامى — المستنبط من القرآن — على رعايا الدولة الفرنسية ، فقد جعلت هذه الأمثلة وما شابهها من التعقيدات المتشابكة فى مجال التشريع — حيث يصطدم القانون الفرنسى مع التشريع الاسلامى — تنفيذ مطالب بن جلول مستحيلة •

على الرغم من أن بن جلول دلل على أحقية الشعب العربى فى الجزائر فى الحصول على هذه الحقوق ، بأن الشعوب الملونة فى المستعمرات وسط افريقيا تتمتع بالحقوق السياسية الفرنسية ، وأن أعضاء من الزنوج يجلسون فى البرلمان الفرنسى ، فلم تجد أدلته طريقاً الى اقناع الجناح اليسارى فى باريس بوجاهة مطالبه وعدالتها •

كلما اشتد موقف باريس فى رفض هذه المطالب ازداد بن جلول وأصدقاؤه اصراراً وتصميما على وجوب اعطائها للشعب العربى فى الجزائر ، ولن يستطيع المرء فهم السر الكامن وراء هذا الاصرار والتصميم ، الا فى ضوء الحالة العامة فى العالم الاسلامى ، حيث عبدت القومية الاسلامية طريقها ، واستعادت مناطق من الاستعمار الغربى ، فلماذا لا يكون هذا ممكناً أيضاً فى الشمال الافريقى ، الذى ظل مائة عام تحت الحكم الفرنسى ؟ تجاوزت ثورة بن جلول حدود الجزائر ، وتجاوبت أصداؤها فى أرجاء تونس ، فأضافت قوة جديدة الى الحركة القومية التى لم تتأثر من قبل بتيارات خارجية ، ولم يستطع

الاستعمار الأوروبى أن يقضى عليها قضاء نهائيا — وان كان قد وجه اليها ضربات عنيفة — رغم قيامها منذ اعلان الحماية الفرنسية فى عام ١٨٨١ م ففى جو الأزمة الاقتصادية هنا — فى تونس — التف حول الزعماء السياسيين — الذين أعلنوا أن شعارهم وبرنامج كفاحهم يتركز حول : فلتسقط فرنسا وليسقط الحاكم العسكرى الفرنسى — بسرعة فائقة جمهور شعبى كبير ، استمع اليهم وسار خلفهم يؤيدهم ويناصرهم ، وحمل لواء الحركة التى كرست جهودها ضد فرنسا طبقة صغيرة العدد ، غير أن لها قدرات عقلية واسعة وغزيرة ، فقد كانت كلها — تقريبا بلا استثناء — من المثقفين الذين تخرجوا فى الجامعات والمعاهد العليا ، نالوا درجاتهم الجامعية — وهى متعددة ومتنوعة — فى الجامعات الشرقية ثم طالبوا — بناء على ما يتمتعون به من قدرات علمية — بالمناصب القيادية التى يسيطر عليها فى تونس الموظفون الفرنسيون • نظمت هذه الحركة نفسها ، فكونت حزبا أطلق عليه اسم : « الدستور » ، وكثيرا ما صدرت الأوامر العسكرية بحظر نشاطه وتعقب أعضائه ، فكان يعاود الظهور مرات عديدة فى أشكال جديدة وتنظيمات مغايرة ، لا يفتر عزمه ولا يكل سعيه ، فأعضاؤه فى نشاط دائم مستمر ، مصرون اصرارا أكيدا على بلوغ هدفهم ، ويدور كفاحهم حول حركة قومية تونسية ، تألق نجمها فى البلاد ، فأرشدت المواطنين الى تجميع قواهم تحت رايتها للمطالبة بالاستقلال التام فى الشئون الداخلية ، وأن يتولى الوطنيون التونسيون تمثيل بلادهم فى المحافل الدولية • اشترك العلماء مع الوطنيين فى تحريك الشعب ودفعه نحو تحقيق هذا الهدف ، فأضرموها نارا حامية ، تخرج من المسجد قاذفات لهب ، يقذف بها الشعور الدينى فى وجه المستعمر الأوروبى ، وكم لاقت السلطة الفرنسية فى الأعوام الأخيرة من ضربات خرجت من المسجد مدفوعة بما يبعثه هذا الدين فى نفوس أتباعه من حقد على الاستعمار الأوروبى ، وما أكثر ما تسبب العلماء فى مصادمات عنيفة مع الحكام المستعمرين فى الآونة الأخيرة •

تطابق اتجاه الوطنيين فى مراكش — حيث فرضت فرنسا (أيام حكم البلاد حكما عسكريا) قيودا كثيرة (لا زالت حتى اليـوم) على ممارسة الشعب لحقوقه السياسية — مع محاولة بن جلول فى الجزائر وحزب الدستور فى تونس ، اذ كونت لجنة كفاح مراكش « Comite d'action Merocain » بقيادة « محمد العصانى » ، فقد انضم لهذه اللجنة القادة العرب الذين تخرجوا فى الجامعات والمعاهد العليا الشرقية كما هو الحال فى تونس ، واحتوت لجنة كفاح مراكش قادة حركة ذاتية ، بعثت من داخل الوطن ولم تتأثر بأى عوامل خارجية ، كانت تمارس نشاطاً سرياً قويا لا ينقطع ولا يهدأ ، وقد قوى عزمها ودفعها الى مواصلة الكفاح ما جرى فى المنطقة المراكشية — الأسبانية — حيث وعد الجنرال « فرانكو » باعطاء المواطنين هناك حقوقهم السياسية بسبب مساعدتهم له فى الحرب الأهلية الأسبانية • تعاونت هذه الحركة — يداً بيد — مع الجناح المراكشى فى جمعية الشبان المسلمين التى لها مركز فى القاهرة ، ولهذا كان لها طابع دينى خاص ، تغلب على العوامـل الجانبية الأخرى ، حتى أصبح السمة المميزة لها ، فأثرت تأثيراً كبيرا فى مخاطبة الشعب المغربى ، اذ كان ينظر اليها على أنها تجسيد للتيار الاسلامى ضد المستعمر الغاصب ، وتعبير لمـا كمن فى نفوس الجماهير من عاطفة دينية ، تدفع المسلم الى مواجهة القوى الغربية •

انه لطابع خاص ألا يعلن قادة هذه الحركة رسمياً أن التحرر من السلطة الفرنسية والانفصال عن فرنسا هدف من أهدافهم ، قد يكون المـانع من هذا ذكاء سياسى ، لأن كل اشـارة أو تلميح رسـمى بالانفصال يوصف بالخيانة ويزج بصاحبه فى السجن ، ويجوز من ناحية أخرى أن تكون معرفة عدم النضوج السياسى واللامبالاة بين طبقات عربية عريضة حتمت اتخاذ هذا الموقف المعتدل • جرت محاولات للقضاء على السلبية الدينية ، عن طريق احياء التعصب الدينى لدى الجماهير واثارة العاطفة الاسلامية عندهم ، ومن الجدير بالذكر التأكد بأن كل الاقلاق — تقريباً — التى حدثت فى تونس فجرها سرعة الانفعال

الدينى — وخاصة عندما كانت تمس قدسية الاسلام بما يرونه انتهاكا لحرمته — ثم يستغل هذا فى المجال السياسى ، لأن التمسك بالدين وعدم التفريط فى أحكام الاسلام والالتزام الشديد بتعاليم القرآن فى كل شئون الحياة ، كان السبب الذى منع فرنسا من تسوية المسلمين فى المستعمرات الفرنسية فى شمال افريقيا باليهود وبـ « اللادينيين » فى ممارسة الحقوق السياسية التى يتمتع بها المواطن الفرنسى • وعليه فقد ذكرت العـامة مراراً وتكراراً بقوله تعـالى فى سورة المـائدة : **« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »**(١) •

وكذلك بالآية الموضـحة لهـذا المعنى فى سـورة النسـاء : **« وأخذهم الربا وقد نهوا عنـه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما »**(٢) •

وتبدو هذه الآيات كما لو كانت تعبيراً عما يجرى فى شمال افريقيا ، فهى تطابقها كل المطابقة ، اذ أن ثلث رجال الشرطة فى الجزائر وتونس من اليهود ، وكانت سياسة القروض — التى أتعبت الفلاح وأنهكته ، خصوصاً وأنها صادفت وجود الأزمة المـالية العالمية — تخضع للنفوذ اليهودى ، فقد راقب اليهود — سواء أكانوا وسطاء أو مقرضين معتمدين على بيوت المـال اليهودية الكبرى فى فرنسا — شئون المـال وقضايا القروض فى شمال افريقيا الفرنسى مراقبة تامة •

وهكذا أصبح واضحاً أن كل الثورات والقلاقل العامة فى شـمال افريقيا — وان كان سببها المباشر أزمة اقتصادية تهدد بقحط عام — تحمل طابعاً دينياً على نحو ما ، وآخر وطنيا ، فالدين والوطنية هنا أقوى منهما فى المناطق الأخرى من العالم الاسلامى وهما متحدان لا ينفصلان أبدا •

اتخذ الزعماء العرب الدين والوطنية قوتين دافعتين لحركات التحرر فى شمال افريقيا ، فهيئا لهم سنداً قوياً بين الجماهير المتمسكة بتعاليم الاسلام تمسكا يبلغ درجة التعصب الشديد جعلهم — وعلى الأخص

---

(١) المـائدة : ٨٢ (٢) النسـاء : ١٦١ .

حزب الدستور واللجنة الوطنية المراكشية ـ ينهجون سياسة ترمى الى اعتبار مبدأ الحماية الأجنبية كأنه أسلوب ونوع علاقة شئون دولتهم الوطنية التى انحدرت فقط الى ارتباط مؤقت مع فرنسا ، ولكنها سوف تتحلل تلقائياً من هذا الرباط ، وتنال حريتها بتطور العرب وتقدمهم خطوات واسعة على سلم الحضارة الدينية ليطالبوا بالاستقلال التام • وعليه فقد ناضل حزب الدستور للحصول على الاعتراف بحق الشعب فى ممارسة الانتخابات ـ سواء أكان ترشيحا أو ادلاء بالأصوات ـ لأن ذلك يؤمن الاستقلال فى الشئون الداخلية ، كذلك طالب ـ أى حزب الدستور ـ بعقد معاهدة مع فرنسا على نمط المعاهدة السورية الفرنسية ، تضيف الى الحقوق التى اكتسبت فى مجال الشئون الداخلية مكاسب فى مجال السياسة الخارجية • اتجه الرأى الى الوثوق من حماية فرنسا تجاه التوسع الايطالى ، فاتخذ النموذج المصرى فى هذا المجال ، هدفا لهم ، وهو الذى وافقت انجلترا فيه على حماية الوطنيين المصريين من نفس الخطر ـ وهو التوسع الايطالى ـ اذ يستوى الأمران هنا وهناك ، والذئب القانع ـ أى الشبعان ـ فى الحظيرة يفضل عن الذئب الجائع الذى يحوم خارج السور • كشف زعيم حزب الدستور عن هذا الاتجاه ـ الذى يطمح اليه حزبه ـ فى تنسيق العلاقة مع فرنسا بقوله : « ان التفسير الفرنسى للعلاقة التونسية الفرنسية بأنها « Kon-Souveränität » [1] ليس صحيحا فالـ « Kon — Souveränität » تتعلق فقط بمسائل السياسة الخارجية ، أما الفصل فى الشئون الداخلية فهو مسألة الشعب التونسى وحده » •

اقترب حزب الدستور من بلوغ أهدافه السياسية : عندما ظهرت

---

(١) تتكون كلمة « Kon — Souveränität » من مقطعين ، فاذا وصفت دولة بالمقطع الثانى دل على أنها تتمتع باستقلال تام فى شئونها الداخلية والخارجية .

أما المقطع الأول وهو « « Kon » فيدل على الاشتراك والمعية ؛ فان وصف وضع الدولة الدستورى بالمقطعين معادل على أنها مستقلة فى شئونها الداخلية فقط ، أما فى الشئون الخارجية فترتبط مع دولة أخرى وهو ما يفهم من النص (م . ش) .

أصوات فى فرنسا ، رغبت فى بدء مباحثات مع الوطنيين التونسيين ، ووضحت الحقيقة البدهية فى باريس ، ألا وهى أنه لا يجوز حرمان تونس مما حصلت عليه سوريا .

حققت مساعى بن جلول فى أثناء ذلك تنفيذ جزء من أهداف الحركة الوطنية فى الجزائر ، ففى عام ١٩٣٣ م رفض فى باريس التماس قدمه زعيم العرب فى الجزائر لمقابلة وزير الداخلية الفرنسى ، وفى عام ١٩٣٥ م استقبل الزعيم الجزائرى نفس الوزير فى الجزائر بعد أن أبدى — أى الوزير — رغبته فى الاجتماع به . أراد رجل الدولة الفرنسى أن يزور بن جلول ، كى يتباحث معه فى مطالبه الوطنية ويرجوه الاعتدال فيها . كانت هذه الزيارة تعبيراً عن التحول الذى طرأ على الموقف الفرنسى ، ذلك التحول الذى لاح جزئيا فى أفق باريس ، اذ تلاها قرار اتخذه مؤتمر الحزب الاشتراكى الفرنسى فى ١ يونية سنة ١٩٣٦ م الذى كان يرأسه « سالنجرو » Salengro وزير الداخلية الفرنسى آنذاك ، طالبوا فيه بالسماح للعرب فى الجزائر بما يطالبون به من اصلاحات سياسية . وقصد بهذه الاصلاحات : حرية الصحافة والاجتماع ، وسن التشريع الاجتماعى والتعليم الاجبارى ، وممارسة الحقوق السياسية العامة . وبهذا تجاوبت فرنسا تجاوباً كبيراً مع مطالب بن جلول ، وخاصة فيما يتعلق بالحقوق السياسية العامة ، التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقوق مواطنى الدولة الفرنسية . ومما يزيد من أهمية هذا القرار ، أنه اتخذ من حزب يملك فى دوائر الحكومة — آنذاك — فى باريس تأثيراً قويا ، وسلطة تلعب دوراً حاسماً فى توجيه سياسة الدولة .

حول مجلس الوزراء الفرنسى فى خريف عام ١٩٣٦ الى البرلمان مشروع قانون يعترف فيه مبدئيا اعترافا صريحا وواضحا بمطالب بن جلول ، فهو يرى السماح بالحقوق التى يتمتع بها مواطنو الدولة الفرنسية لمجموعة تبلغ ٢٠٫٠٠٠ عربى تقريباً ، وهم يتكونون من النخبة العربية — أى طبقات الأعيان — الذين هم صفوة المجتمع

العربى : الضباط ، ومساعدو الضباط ، ومن يحملون أوسمة أو نياشين فرنسية أو أنواطا (ميداليات) عسكرية أو بحرية •

لا ينبغى أن تمس الحقوق الدستورية الجديدة — التى منحت لرعايا فرنسا فى الجزائر — النظام الاجتماعى للفرد الذى يراد ادماجه — عن طريق منحه الحقوق المدنية السياسية الفرنسية — فى المجتمع الفرنسى ، فسيكون للمواطن الفرنسى الجديد — كما لبقية الفرنسيين المسلمين الذين يعيشون فى الهند الصينية الفرنسية وفى السنغال — الحق فى أن يعيش طبقاً لتعاليم القرآن بالنسبة لتعدد الزوجات وعليه ، فيمكن أن يحدث نظريا أن يقدم وكيل نيابة فرنسى — ينتمى الى طائفة المواطنين الفرنسيين — فرنسيا للمحاكمة بتهمة تعدد الزوجات — وهو أمر يحرمه القانون الفرنسى على المواطنين غير المسلمين — فى حين أنه هو نفسه متزوج بأكثر من امرأة •

أثار اعداد هذا المشروع وتقديمه للبرلمان عاصفة من السخط لدى الرأى العام فى فرنسا وبين الفرنسيين فى المستعمرات الفرنسية ، وقد أشارت الدوائر السياسية الى الأخطار التى سوف تنتج من جراء تطبيقه ، وخاصة أنه سيهيىء للمتطرفين الثوريين فى الجزائر ، الذين ينادون — ويكافحون — بالانفصال عن فرنسا وتأسيس دولة الجزائر ، جواً يساعدهم على تحقيق آمالهم • بقيت حكومة « بلوم Blum » — وهى التى وضعت مشروع التجنس (أى تجنيس الجزائر بالفرنسية نتيجة منح الجزائريين حقوق المواطن الفرنسى) وأظهر أعضاؤها تضامنهم فى تحمل المسئولية — أمام كل التصورات على قرارها ، مصممة على رأيها الذى صاغته فى القرار ، اذ بنته على أمل أن يظل حكم فرنسا فى المستقبل ثابتا وراسخا بواسطة تغيير الجنس العربى وادماجه فى المجتمع الفرنسى •

هل سيتحقق هذا الأمل ، فتحدث عملية اندماج شمال افريقيا مع فرنسا وتظهر قوى جديدة تنقذ النفوذ الفرنسى من الضياع والهوان ، وتضمن للحكم الفرنسى هناك الدوام الأبدى ؟ سيخبرنا بذلك المستقبل ،

وان كانت الظواهر المعاصرة تجعل المرء يميل الى الشك فى تحقيق هذا الأمل ، أو على الأقل تقلل من قيمته ، فلا يسلم المرء به حقيقة مؤكدة فالسكان المسلمون فى الجزائر — وقد أصابتهم عدوى استقلال الشعوب العربية فى غرب آسيا بميكروباتها — يطمحون بدون شك الى الاستقلال والانحياز الى المعسكر الاسلامى ، ويرفض الشعب — كما يظهر ذلك فى تصريحات عديدة لزعماء جزائريين — الاندماج والذوبان فى الحضارة الفرنسية رفضاً باتاً ، فهو معتز بنفسه كشعب عربى مسلم ، ويحاول فى مناسبات عديدة اظهار تمسكه بالجزائر عربية اسلامية • فحركة التجديد والاصلاح ، التى يحمل لواءها الوطنيون الجزائريون ، ليس لديها اطلاقا رغبة فى أن تصبح فرنسية ، فقد أسست على ركائز العداوة والكره للاستعمار الأوروبى ، الذى اقتحم هذه الأوطان ، وبسط سلطانه عليها بقوة البطش والجبروت : ولذا تسير فى خط مضاد له على أمل أن تقذف به الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط المقابل •

ان أهمية المعنى الذى يرمى اليه منح الحقوق التى يتمتع بها المواطن الفرنسى لـ ٢٠٠٠ر٠٠٠ جزائرى مسلم ؛ يكمن فى موقف الوطنيين الجزائريين الملتفين حول بن جلول ، فقد رأوا فيها مثالا ينبغى أن تتبعه أمثلة كثيرة ، لأن الوطنيين يعتقدون أن المسلمين الجزائريين الذين يمثلون الغالبية العظمى للسكان ، وان لم يتمتعوا اليوم بممارسة الحقوق السياسة ، فسوف تكون لهم فى المستقبل الأغلبية السياسية التى تمكنهم من الوصول الى السلطة ، وفى ذلك الوقت ستبقى خطوة واحدة على بلوغ الهدف ، ألا وهى نهاية النفوذ الفرنسى فى الجزائر ، وبالتالى نهايته فى شمال افريقيا كله •

نفذت مطالب بن جلول — تلك المطالب التى لو نودى بها بعد الحرب مباشرة ، لأصبح من ينادى بها أضحوكة يتندر به ، لأنه يتكلم كما لو كان يحلم أحلام يقظة — فأصبح واضحاً أى منطقة فقدها الأوروبيون ، انهم على وشك اطرد من مستعمرة الاستعمار كانت تعد من أقوى المستعمرات الأوروبية ثباتا تحت النفوذ الغربى ، لقد غاصت

الأرض تحت أقدامهم فى شمال افريقيا ، فاهتز سلطانهم ، وبات يهيىء نفسه للرحيل ، ان بن جلول يستطيع اليوم أن يقف فى قاعة برلمان باريس ، ويتحدث فى محفل الدولة الرسمى بلغة لو تحدث بها أمس — وطالب بما يطالب اليوم — لتعقبته الدولة تعقب من ارتكب الخيانة العظمى ضد نظمها المقدسة الثابتة ، ولأنزلت به أشد العقاب دون هوادة ولا رحمة .

* * *

واجه العالم الاسلامى — وهو ينفض عنه غبار النوم محاولا تمزيق القيود التى كبلته ردحا من الزمن : قيود التأخر الفكرى والتخلف الاجتماعى ، وقيود الاستعمار العسكرى الذى انقض عليه فسلبه ما يملك من حرية وثروة — صنوفا من الاستعمار الغربى الأوروبى ، وكانت ايطاليا الفاشية احداها ، الا أنها احتلت موقعا متأخرا فى ميدان النزاع الفكرى والسياسى مع الشرق الاسلامى . ولهذا كانت أقل القوى الاستعمارية صداما مع تيارات القومية الاسلامية .

انتهجت ايطاليا قبل الحكم الفاشستى سياسة استعمارية ، فحاولت غزو واستعمار مناطق معظمها فى الأقطار الاسلامية ، غير أنها لم تنجح نجاحاً كبيراً فى هذا المجال ، فلم يكن لديها طالع السعد فى السيطرة على المستعمرات ، ولا الطموح الاستعمارى المنظم الذى يدفع — بنوع خاص — الى التخطيط الاستعمارى السليم المحكم ، فبعد الهزيمة عند «العدوة» فى شمال الحبشة — التى أودت فى فترة ما بعد الحرب بنشاط ايطاليا الاستعمارى وقذفت به الى غرفة الاعدام — لم تصادف جهود روما فى أرتيريا والصومال نجاحاً يذكر سوى شريط ساحلى ، أما ليبيا فتعتبر ثمرة الحرب الايطالية التركية ، سقطت — سقوطا دون مجهود مماثل لما حدث فى المناطق الأخرى — فى حجر روما ، ولهذا بقيت السلطة الايطالية فى ليبيا عشرات السنين صورية فقط ، وانحصرت فى المناطق الساحلية ، وكان حجم الاحتكاك مع الاسلام — الذى قاد فيه السنوسى الصراع ضد ايطاليا بمجموعة من الرجال ، هيئوا فكريا

بمبادىء الاسلام التقليدية المحافظة ، فهم متمسكون بتقاليد الاسلام ومبادىء القرآن ، لا يحيدون عن ذلك قيد أنملة — ضئيلا ، فظلت مواجهة الاسلام هنا مع القوى الأوروبية غير ذى أهمية خاصة وأن السنوسى كان يهرب من هذه المواجهة بدل أن يبحث عنها ، ويهيىء الظروف لها لتتاح له فرصة ضرب القوى الاستعمارية فى معقلها ، كما كان يحدث فى المناطق الاسلامية الأخرى .

خسرت ايطاليا — كما خسرت فرنسا — فى لقائها الأول بعد الحرب مع القومية الاسلامية نصيبها ، الذى وعدت به فى معاهدات التقسيم الاستعمارى بين الدول الأوروبية ، وجاءت هذه الخسارة نتيجة صدام مع الوطنيين الأتراك بقيادة «مصطفى كمال» ، الذى قاد البلاد فى فترة تحديد مصير تركيا ، وهى ما بين عامى ١٩١٩/١٩٢٠ على نحو أجبر القوى المنتصرة على التنازل عن أطماعها الاستعمارية ، والكف عن التوغل فى منطقة الأناضول ، فاضطرت الى الوقوف عند أطراف هذه المنطقة ، فقد وعدت ايطاليا فى معاهدات التقسيم المختلفة التى وزعت فيها تركة الباب العالى بولايتى قونية وأنطاكية المواجهتين لـ « جزر دوديكانز » « Dodekanes Isles » وعندما أرادت بسط سلطانها على هاتين الولايتين أحست بمقاومة عنيفة لا تقل عن المقاومة التى تصدت لانجلترا وفرنسا واليونان من جانب الوطنيين الأتراك ، ففضلت التنازل على نزاع دموى قد يحدث اذا ما استمرت فى تنفيذ مخططها الاستعمارى ، وسحبت قواتها — دون قتال — التى كانت ترابط منذ عام ١٩١٨ م فى كلتا الولايتين ، متبعة فى ذلك ما فعلته انجلترا .

لم تفكر ايطاليا تفكيرا جديا فى تحقيق الهدف الاستعمارى — سواء أكان ذلك فى المجال السياسى أو الفكرى — فى المناطق الواقعة فى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط الا فى عهد موسولينى ، فقد تصاعدت الرغبة فى التوسع ، وارتفعت حرارة حمى الأطماع الاستعمارية بقدر ما أحست ايطاليا آنذاك بصغر رقعة الأرض التى تبسط سلطانها عليها ، واتجهت النية أولا الى استغلال الامكانات الموجودة لدى ايطاليا ،

فتركزت فى تحويل المستعمرات الموجودة بالفعل تحت النفوذ الايطالى الى وضع يخدم هذه النزعة الاستعمارية التى استيقظت فى روما الفاشية ، فأقنعت رجال الحكم بضرورة التوسع الاستعمارى للوصول الى مركز القوى العظمى التى ناضلت ايطاليا فى عهد موسوليني فى سبيل الحصول عليه بجانب القوى العظمى الأخرى فى أوروبا ، وبهذا أصبحت مواجهة ايطاليا للعالم الاسلامى على جانب كبير من الأهمية ، لأن تطبيق هذه السياسة الاستعمارية سيجرى فى مناطق اسلامية أو معظم سكانها مسلمون • الأمر الذى حتم على ايطاليا بذل جهود مضنية لايجاد صيغة للمواجهة مع الاسلام ، تهيىء امكانية التوسع السياسى والثقافى ، دون أن تثار مقاومة — من جانب الوطنيين — لا داعى لها •

كانت هذه مهمة صعبة ، لم تدرك الفاشية مدى صعوبتها الا فى الفترة من عام ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ م عندما بدأت تتخذ اجراءات مشددة فى طرابلس وبرقة ، وتستبدل السلطة الصورية — التى كانت موجودة حتى ذلك الحين — بأخرى استعمارية عنيفة ، فثارت القبائل ضدها ، فاستخدمت ايطاليا القوة العسكرية فى اخماد الثورة وفرض نفوذها بقوة السلاح • ازدادت المقاومة عنفا وخاصة تلك التى كان يديرها السنوسى من واحة الكفرة ، مقر تجمع السنوسيين الشهير ، فلم تستطع ايطاليا بسط نفوذها الا بعد أعوام كثيرة ، شن فيها السنوسيون حرب العصابات على القوات الايطالية ، وقامت فيها تلك القوات بحملات ومعارك حربية بقيادة الجنرال « جرازيانى Graziani » ولم تتمكن روما من فرض سلطانها هنا فى ليبيا ، الا بعد ما ساقت الجزء الأكبر من الشعب الى معسكرات الاعتقال ، وأصبحت برقة خالية تقريبا من السكان • أظهر نضال السنوسيين قوة العقيدة الاسلامية فى تحريك الثورة ضد القوات الأجنبية ، كذلك أوضحت المعارك مدى تأثير العقيدة فى العالم الاسلامى فى تحريك المؤمن بالاسلام الى التفانى فى خدمة وطنه — لأنه وطن الاسلام — فى الميدان ، وكيف تهيئه لتقديم روحه فداء له ، بل هو يؤثر الموت على الحياة أثناء المعارك المصيرية • يستطيع المرء أن يلمس هذا فى المشهد الذى رواه الجنرال « جرازيانى »

« Graziani » في تقريره عن المعركة ضد السنوسى فى كتاب بعنوان : « هدوء سيرانايكا » « Cirenaica Pocificata » ، فيروى الجنرال : كيف حوصرت آخر مجموعة من السنوسيين ــ الذين كانوا يقاومون تحت قيادة الشيخ الكبير عمر المختار ــ ووقعوا فى الأسر ، ثم اقتيد الشيخ الكبير الى الجنرال ، ويمضى التقرير فيقول : سأل الجنرال الشيخ عمر المختار : لماذا تصر على الكفاح ضد ايطاليا ؟ فكان الجواب : لأنه واجب العقيدة المقدس • فسأله الجنرال سؤالا آخر : هل كان عندك أمل فى طردنا من سيرانايكا [برقة] بمعركة تحارب فيها بهذا العدد القليل من الرجال وبتلك المعدات البسيطة ؟ فأجاب الشيخ : لا ، لم أعتقد هذا • فقال الجنرال : مادا أردت اذن ؟ فجاءت الاجابة المدهشة : لا شيء ، أنا أجاهد فى سبيل عقيدتى وهذا كاف ، أما الباقى فيتكفل به الله عز وجل •

علمت روما أثناء معارك « برقة » لأول مرة بالتضامن النضالى لجميع العالم الاسلامى تجاه كل الأطماع الاستعمارية للقوى الغربية ، حتى ولو كان القتال ــ كما هو الحال فى «برقة» ــ يدور فقط لتعزيز نفوذ اعترف به دولياً على مدى زمن طويل ، فالصحافة الاسلامية ــ من القاهرة حتى كابول ــ هاجمت ايطاليا الفاشية ، وأثارت الرأى العام الاسلامى ضدها ، فعبأت الجماهير الاسلامية بالغضب والسخط على الأعمال التى ترتكبها القوات الايطالية فى ليبيا ضد القوات السنوسية ، وانبرت الأقلام تروى باسهاب الفظاعة والوحشية الايطالية فى برقة للرأى العام ، لتحريض العالم الاسلامى لاتخاذ موقف مضاد تجاه ايطاليا الفاشية •

أراد موسولينى أن يوقف هذا الهجوم المفاجىء ، فأومأ الى استعداده للتفاهم مع القوميين الاسلاميين فى ليبيا ، وأعلن فى عام ١٩٢٨ م أن ايطاليا صديق حميم للعالم الاسلامى ، كذلك شرح الموقف الايطالى تجاه العالم الاسلامى فى الكتاب المنهجى « مسلمون ايطاليون L'Italia Musulmana » بطريقة مماثلة ، كما لو كان

صديقاً ومحاميا له ، ولكن عندما دعا الدوق — ليثبت النيـة الطيبـة تجاه العالم الاسلامى — الى عقد مؤتمر للطلاب العرب فى روما ، ودعا اليه عدداً من البلاد العربية ، كى يخفف مرحلة الموقف المتأزم بين ايطاليا والمسلمين ، كتبت احدى جرائد القاهرة تقول : هل يمثل هؤلاء القلة الذين لبوا الدعوة الايطالية الطلبة العرب ؟ وهل يعتقدون أنهم طلبـة عرب ، أى خزى يعلو وجوههم ، وأى عار يدنس تاريخهم !!

حاولت ايطاليا أثناء سـير المعارك فى « برقة » أن تخطو خطوة ثانية على طريق تحقيق أطماعها الاستعمارية لتكسب مناطق جديدة تضم الى ماهو تحت سلطانها منذ زمن ما قبل الحرب ، ففى هذا اليوم حيث كانت المعـارك تدور فى « برقة » ؛ حاول امام اليمن — حاكم تلك المنطقة الخصبة فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة العربية « ملك اليمن السعيد » — الركون الى ايطاليا ، لأن اليمن رأى نفسه مهدداً من ابن سعود — الطامح الى التوسع ، وتساعده انجلترا على ذلك خفية — ومن محاربيه الوهابيين ، الذين احتلوا منطقة العسير المتطرفة فى شمال اليمن ، وتجاوبت ايطاليا مع رغبة اليمن ، فأظهرت استعدادها فى تلبية حاجته الى المساعدة ضد من يهدده ، لأن أصحاب السلطة فى ايطاليا اعتقدوا أن التقرب الى اليمن يخلق امكانية تحقيق طموح ايطاليا فى التوسع الاستعمارى ، وأكثر من هذا ، فقد أدركوا فى رومـا أهمية الشاطىء اليمنى الاستراتيجية فى مد المخططات الاستعمارية الكبرى ، التى اتجهوا نحوها لأول مرة فى هذه الأعوام — أى فى عهد الفاشية — اذ هم يأملون — عن طريق الدنو من اليمن — فى السيطرة على المركز الاسـتراتيجى عند باب المندب الذى يعتبر مفتاح البحر الأحمر من الجنوب ، فهو — أى البحر الأحمر — ليس شيئاً آخر طبقاً للتصـور الايطالى — سوى أنه جزء من منطقة البحر الأبيض المتوسط التى ينبغى أن يبسط فيها النسر الرومانى جناحه .

أدى هذا الموقف الى توقيع معاهدة صداقة بين اليمن وايطاليا فى أكتوبر عام ١٩٢٦ م ، ولم يكد يمضى عام كامل على توقيع هذه المعاهدة

حتى كملت بملحق لها • نعم ! اعترفت ايطاليا فى اطار هذه المعاهدة بالاستقلال التام — غير المشروط ولا المحدد — للامام الذى وصف فى نصها بأنه الملك ، ولكنها فى نفس الوقت ألزمت روما بارسال خبراء الى اليمن للعمل فى جميع المجالات الادارية ، وعلقت السياسة الايطالية آمالها على هؤلاء فى فتح الطريق للزحف الايطالى الى اليمن • كذلك أخذت روما على عاتقها اعطاء اليمن آلات ومعدات هندسية لتطوير البلد ومساعدته فى الدفاع عن نفسه ، وأعلن الامام — فى مقابل هذا — استعداده تفضيل روما فى المجال الاقتصادى على القوى الأخرى • كان توريد الأسلحة والذخيرة بندا أساسيا فى معاهدة الصداقة اليمنية الايطالية ، اذ بموجبها قامت جبهة مشتركة توجه دفاعها فى ناحيتين : الأولى ضد الاستعمار الانجليزى فى عدن ، والثانية ضد أيديولوجية العربية السعودية التى طوقت حدود اليمن وحاصرته بعد أن استولى ابن سعود على منطقة العسير الواقعة فى شماله •

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى انضمت فيها ايطاليا الى جبهة ضد الاستعمار الانجليزى ، اذ سبقتها تحركات ايطاليا فى ايران ضد انجلترا ، فالسفن الحربية — التى حصل عليها شاه ايران ، واستعملها فى مظاهرة حربية ضد انجلترا ليظهر لها قوته ، وليبين لهم عضلاته الدفاعية — كانت من صنع « الترسانة » الايطالية ، خرجت الى الحياة من أحواض سفن روما « ودشنت » فى المياه الايطالية والقوات التى كانت على ظهر هذه السفن دربوا عسكريا وفنيا على ظهر سفن روما الحربية •

انزلقت ايطاليا فى اليمن الى ساحة الاحتكاك مع قوى القومية الاسلامية ، التى وجدت بالطبع حماية ظهورها لدى انجلترا ، فاضطرت ايطاليا الى بدء طريق العودة من حيث أتت ، فقد رأى ابن سعود فى التقارب اليمنى — تحت زعامة الامام — الى روما ضربة موجهة ضد سياسة السعودية العربية ، التى تسعى بكل ما أوتيت من قوة لابعاد

النفوذ اللااسلامى — أى نفوذ القوى الأوروبية — عن شبه الجزيرة العربية ، فمعاهدة الصداقة اليمنية الايطالية تفتح للقوى الاستعمارية الغربية بابا فى الجزيرة ، لا ، بل بوابة واسعة ضخمة ، ولذا ساءت العلاقة بينه وبين اليمن من اليوم الذى وقعت فيه هذه المعاهدة ، وأصبح مستحيلا عليه أن يغض الطرف عنها ، ويعيش مسالما للامام • بدأ فى عام ١٩٣٣ م نزاع حول مسائل الحدود تجاوز الجانب اليمنى ، فأصبح صراعا بين الأطماع الايطالية وبين ابن سعود ، ساندت فيه انجلترا السعودية العربية ، لأن لندن لم تعد تصبر على وجود قوة أوروبية عظمى على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر • لاحظ امام اليمن تفوق المملكة العربية السعودية ، فوافق على عقد معاهدة صداقة ، يلتزم فيها بالمبادىء الأساسية للسياسة السعودية ، فارتبطت السياسة الخارجية لليمن بمنهج السياسة السعودية ربطا يقارب التوافق فى الخطوط العريضة ، وأغلقت تدريجياً تلك الأبواب التى فتحت من قبل أمام النفوذ الايطالى ، فخرج اليمن من الجبهة الايطالية ، ورفض منح الايطاليين امتيازات فى المملكة ، وأخيراً أنهى استعداد الامام الانضمام الى القوى العربية المتضامنة — كطرف نشط بين العراق والعربية السعودية — محاولة التوسع الايطالى فى أطراف الجزيرة العربية ، وقضى عليها قضاء نهائياً ، ففى أوائل عام ١٩٣٧ م انضم اليمن الى الحلف القائم بين بغداد والرياض عن طريق دخول كل منهما تحت جناح ما يسمى السلم البريطانى « Pax Britanic » ، وبهذا ضاع مركز ايطاليا فى جنوبى البحر — عند آخر نقطة تتحكم فى أمور البحر الأبيض المتوسط — الذى حصلت عليه طبقا للمعاهدة اليمنية الايطالية ، فوجدت نفسها — أى ايطاليا — مرة أخرى تقف على الناحية الغربية فقط من باب المندب •

اجتاح العالم الاسلامى موجة شك فى الاستعمار الايطالى ، وارتاب فيه ارتيابا لا حدود له ، وذلك أثناء العمليات الحربية فى الحبشة ، حيث وضحت روما لأول مرة أمام العالم — بالدليل القاطع وتحت

الأضواء الكاشفة ــ ارادتها التى لا تعرف اللين ، وقدرتها على استعادة القوة والسيطرة مرة أخرى ، فقد أزعج الهجوم الذى شنته ايطاليا على آخر مملكة مستقلة فى افريقيا السوداء ، المناطق المجاورة للحبشة ، وأنذرها بخطر الزحف الاستعمارى الايطالى ، وعلى الرغم من الخلافات القائمة منذ قرون طويلة بين الاسلام ، وبين المسيحية ذى الطابع القبطى ، وعلى الرغم من اضطهاد الاسلام فى المملكة الأثيوبية فقد تعاطف المسلمون أثناء الحرب الأثيوبية مع امبراطور الحبشة الواقع تحت تهديد الغزو ، وشاع عدم الثقة بايطاليا فى المناطق الاسلامية ، واشتدت التيارات المضادة للتوسع الايطالى ، لأنهم أدركوا أن زحف هذا التوسع قد يحدد مصير أجزاء بعيدة فى المنطقة الاسلامية ، تلك الأجزاء التى أصبحت بعد الانتصار الايطالى فى أثيوبيا هامة بالنسبة لروما ، فهى مناطق استراتيجية تجذب اهتمام وتفكير المخططين الاستعماريين لموقعها بين مناطق نفوذ روما ، فبعد غزو أثيوبيا أصبح وادى النيل محصوراً بين كماشة ايطالية ، أحد فكيها من الغرب ــ من ليبيا ــ والفك الآخر من الجنوب ــ من أثيوبيا ــ وكان من الممكن أن يؤثر هذا الوضع على موقف مصر • عمقت المساعدة الانجليزية هذا الادراك ، خصوصا بعد ما أصبحت الخلافات الانجليزية الايطالية بعيدة الهوة عميقة الأغوار عقب انتصار روما على أثيوبيا ، وليس خافيا اليوم على أحد فى الشرق أن الفراغ الاسلامى فى شمال افريقيا وغرب آسيا مكان سوف يتحدد فيه مصير الخلافات ، فهو ساحة الاحتكاك بين القوتين الاستعماريتين ، اذ تتمسك كل منهما بموقفها الذى ترى فيه حماية مصالحها فى المنطقة ، وتصر على نهج الطريق الذى يضمن لها الحفاظ على مواقعها ، ويحقق لها تنفيذ مخططها الاستعمارى ، وعلى ضوء هذا الوضع تكون مواجهة ايطاليا للاسلام مواجهة مصيرية •

أضف الى هذا أن عدد المسلمين ــ الذين يعيشون تحت الحكم الايطالى ــ زاد بعد الحرب الأثيوبية الى ما يقرب من ٦ مليون مسلم ، وقد كانوا قبلا مليونين تقريباً ، ٦٠٠ر٠٠٠ تقريباً فى ليبيا و ٣٠ر٠٠٠

فى أريتريا وعددا يناهز المليون فى الصومال ؛ أملى هذا العدد الكبير — وخاصة أن تيارات الجمعيات الاسلامية تجتاح العالم الاسلامى غير عابئة بحدود سياسية ، ولا تستطيع السلطات الاستعمارية الوقوف فى طريقها أو منع اتصالها — على السياسة الايطالية اتجاها معينا ، اذ ألزمها بسلوك كل الطرق الممكنة ، واستعمال كل الوسائل المتاحة ، لانشاء علاقة طيبة مع العالم الاسلامى • أدركت روما هذا قبل الحرب الأثيوبية ، فبدأت تشير الى رغبتها فى التقرب الى المسلمين الوطنيين فى ليبيا ، وانشاء علاقة طيبة معهم كى تزيل الأثر السيىء الذى تركته معارك برقة فى العالم الاسلامى ، فشجعت بناء المساجد وتبرعت لتأسيس مدارس اسلامية فى كل المدن والقرى ، فأقيم بالمال الرومانى — نسبة الى روما — مدرسة عليا لتدريس الحضارة والشريعة الاسلامية ، ففيها يتخرج القضاة وعلماء الدين ، وأولت ايطاليا هذه المدرسة رعاية خاصة ، وعنيت بها عناية كبيرة حتى تصرف المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم الايطالى عن التوجه الى الأزهر ، وتحول بينهم وبين الاتصال بالثقفة الأزهرية والتيارات التى تجوب أرجاء هذه الجامعة القديمة ، وتمسك بهم بعيداً عن محيط التأثر بالروح الأزهرية ، لأن موقف الأزهر بالنسبة للقوى الأوروبية معروف ، فهو لا يهادن المستعمر ويعبىء كل من اتصل به بكره الأجانب الذين اقتحموا ديار الاسلام ؛ ويهيئهم لمناضلة الاستعمار الغربى ومقاومته •

بدأت روما — بعد انتهاء غزو أثيوبيا — تمثل دور « الصديق الحميم للاسلام » ، فقلدت بريطانيا فى عدم التدخل — أصلا — فى المسائل الدينية لرعايا المستعمرات ، كذلك استغلت وضع المسلمين فى أثيوبيا — الذين كانت تضطهدهم السلطات الأثيوبية قبل الغزو الايطالى — فناصرتهم وعاونتهم على نيل حقوقهم وحرياتهم الوطنية ، كى تكسب بهذه الطريقة صداقة المسلمين • ففى البندين رقم ٣١ ، ٣٢ من قانون اعادة بناء أثيوبيا قررت روما : « للمسلمين الحرية الكاملة فى اعادة واقامة بيوت عبادتهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية واعادة

تكوين الجمعيات الدينية والمدارس الاسلامية ، يقوم القاضى بالفصل فى المنازعات والخصومات بين المسلمين طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية والتقاليد المحلية للسكان • ويكون التعليم باللغة العربية لازما للرعايا فى كل المناطق الاسلامية داخل حدود المملكة الأثيوبية » • بلغ التسامح الايطالى تجاه المسلمين أكثر من هذا ، اذ ساعدت روما — بقصد الدعاية لدى المسلمين — وشجعت على أن يؤدى مسلمو شرق افريقيا فريضة الحج ، وسهلت لهم السفر الى مكة ، فأصبحت هرر مركزاً للاسلام فى شرق افريقيا الايطالى • قابل المسلمون فى أثيوبيا هذا الاتجاه الايطالى — الذى أعقب اضطهادهم أثناء حكم الامبراطور الأثيوبى — بالشكر والامتنان ، وعمهم السرور بهذا الوضع الجديد ، فلم يتطرق الشك فى صدق واخلاص ولائهم لـ « جرازيانى Graziani » [1] القائم بأعمال الملك فى أثيوبيا • أخلص المسلمون الولاء له لما قدمه لهم من مساعدات رفعت عن كاهلهم الاجراءات الشديدة التى اتخذها من قبل امبراطور أثيوبيا •

حاولت ايطاليا أيضاً خارج حدود مستعمراتها محو عدم الثقة بها لدى الشعوب الاسلامية عن طريق الدعاية واظهار التعاطف مع المسلمين ، فوجهت سياستها الى اقتلاع ما غرس منذ أيام الحروب التى دارت مع السنوسيين فى قلوب المسلمين من حقد وعداوة للايطاليين ، والى ازالة ما خلفته الحروب الأثيوبية لدى الرأى العام الاسلامى من غرس الريبة والشك تجاه التوسع الايطالى فى افريقيا • ارتدت السياسة الجديدة ثوب دعاية ثقافية واسعة النطاق تركز ثقلها على تصوير روما الفاشية بأنها صديق حميم للاسلام :

— فتحت المدارس العليا الايطالية أبوابها أمام الطلبة العرب •

---

(1) Rudolfo Graziani ايطالى ولد فى ١٨٨٢/٨/١١م فى Filettino وتوفى فى روما ١٩٥٥/١/١١ • تولى القيام بأعمال الملك فى اثيوبيا عامى ١٩٣٧/٣٦م والقيادة العامة فى ليبيا عامى ١٩٣٧/٣٦ م وتولى وزارة الدفاع من سبتمبر ١٩٤٣ حتى أبريل ١٩٤٥ فى الحكومة الجمهورية ، قبض عليه فى مايو ١٩٤٥ وأدين أمام المحكمة ثم أفرج عنه فى أغسطس • (م • ش) •

obeikandi.com

— أرسلت مدرسين ايطاليين الى المدارس العربية فى سورية وفلسطين ، دون أن تدفع تلك المدارس مليما واحدا من مرتباتهم ، فقد تكفلت بها الحكومة الايطالية .

— قدمت المستشفيات الايطالية خدمات مجانية فى جميع فروع الطب للعرب .

— بثت الاذاعة الايطالية عبر موجات الأثير برنامجا باللغة العربية يذاع يوميا من محطتين لمدد طويلة — أى أن الحكومة الايطالية أنشأت محطتين تذيعان اللغة العربية كل يوم — حاولت من خلالهما — بطريقة مانوية وبأسلوب ذكى — تصوير موقف القوى الاستعمارية الأخرى بأنه عدائى تجاه الاسلام ، بينما تكن ايطاليا للمسلمين الحب ، وهى مستعدة لتقديم العون لهم ومساندتهم فى قضاياهم ، وهى اذ تفعل ذلك فانما تعبر عن صداقتها للمسلمين ، تلك الصداقة التى لا تخفى وراءها أطماعا ولا ميلا الى الاستغلال .

— تدفق الذهب الايطالى على الصحافة العربية ابتداء من دمشق حتى القاهرة ، بغية التأثير عليها وتجنيدها لخدمة الدعاية الايطالية لدى الرأى العام العربى .

ومما لا شك فيه أن ايطاليا استهدفت من وراء هذه الدعاية تحقيق غرض سياسى فى ميدان الصراع مع انجلترا وفرنسا ، ولهذا كانت نغمتها ذات اتجاهين :

— أحدهما يؤكد الصداقة المتينة للاسلام وتأييد مطالب المسلمين والوقوف معهم لتحقيق آمالهم .

— والآخر يحمل فى طياته — بطريقة غير سافرة — سهما مدببا يطعن كلتا القوتين ، الأخريين ، وهما انجلترا وفرنسا .

تجاوزت الدعاية الايطالية الحدود التقليدية لهذين الاتجاهين ، يظهر ذلك فيما قامت به أثناء رحلة موسولينى عبر ليبيا بمناسبة افتتاح الطريق الكبير الممتد على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ابتداء من الحدود

مع تونس حتى الحدود المصرية ، فقد وصفت الدعاية هذا الخط بأنه عمل ضخم ، أرسى قواعد الصداقة المتينة والعمل المشترك ؛ وهيأ جـواً لتعاون مثمر ، سوف يمتد عبر الأجيال القادمة بين ايطاليا الفاشـية والعالم الاسلامى •

أعلن موسولينى مراراً وتكراراً — فى الخطب التى ألقاها أثناء الرحلة — عن سياسة ايطاليا الرسمية تجاه الاسلام ، وعن تقديره واحترامه له ودعا الى ضرورة التعاون والعمل المشترك بين الحضارتين الاسلامية والايطالية • لقد كانت هذه الرحلة ذروة الدعاية الايطالية ، استمر الاستعداد لها شـهوراً طويلة ، واسـتخدمت المراكز الثقافية الايطالية أسلوبا منظما ومنسقا غاية التنسيق لتهيئة الجو لها ، اذ حرصت روما — من وراء هذا كله — على شد انتباه العالم العربى والشرق الاسلامى كله الى النجم الايطالى الصاعد • وكان من الأغراض الرئيسية أيضـاً طمس هيبة انجلترا فى الشرق ، بعد أن اهتز وتصدع بنيانها نتيجة الأحداث التى وقعت حول أثيوبيا وبسبب ما يـدور الآن فـى فلسطين ، ان الوصف الايطالى لرحلة موسولينى عبر ليبيا — كما عبر عنه المكتب الرسمى الايطالى للأخبار فى محطاته الموجهة الى الشرق — يشير الى مدى أهمية هذه الرحلة ، والى الطابع الذى سلكته الدعـاية الايطالية ، لتحقيق ما تهدف اليه ايطاليا لدى الرأى العام الاسلامى ، فقد سجلت كل زيارة قام بها موسولينى للمساجد ، وكتبت تقارير مطولة عن التبرعات التى قدمها لاقامة منشآت اسلامية ، كما وصفت وصفا دعائيا كل الاحتفالات التى أقامها المسلمون له فى ليبيا تعبيرا عن الصداقة والعمل المشترك بين الفاشية والعالم الاسلامى ، وبلغت الرحلة ذروتها فى اللحظة التى ظهر فيها موسولينى فى طرابلس على حصان أبيض — يلمع تحت أشعة الشمس من كثرة ما احتوى سرجه من أحجار براقة — ليتسلم « سيف الاسلام » هدية مقدمة له من المسلمين فى هذه المدينة ، ووصف « بالبـو Balbo »[1] فى الاحتفال سيد ايطاليا الفاشية بأنه « حامى

(١) هو « Italo Balbo » قائد السلاح الجوى الايطالى ولد =

الاسلام » ، وحياه بهذه الكلمة : « يزورنا اليوم محارب مثلكم ، أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن مجد روما وكل شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط » • شكر موسوليني الشعب الليبي وحيا الصداقة الاسلامية الايطالية في كلمات رنانة ، وعبارات حماسية ، ثم علق على تقديم « سيف الاسلام » هدية له قائلا : « لقد أعطيتموني أحسن الهدايا وأفضلها ، هذا السيف الذي هو رمز للقوة وللعدل ، سوف آخذه معي الى روما وأحتفظ به كأغلى تذكار في حياتي » •

بثت كلمات « بالبو Balbo » التي وصف بها موسوليني بأنه المدافع عن كل شعوب البحر الأبيض المتوسط حماسا ونشاطا لدى النقاد الانجليز والفرنسيين ، وانطلق وصفه لموسوليني بأنه « حامي الاسلام » يدوي في أجواء العالم الاسلامي ، فأحدث ردود فعل سيئة لدى المسلمين ، فقبل أن تنتهي احتفالات الصداقة الاسلامية الايطالية في طرابلس تحت الحكم الفاشستي ، اندلعت في الجانب الآخر خارج حدود النفوذ الايطالي موجة عارمة من السخط والغضب — السخط الضارب بجذوره الى أعماق القلوب ، والغضب الهادر المنفجر من منطقة الايمان التي تسيطر على تصرفات المؤمن ، وتوجهها للدفاع عن عقيدته ، ولو كان في ذلك هلاكه ، لأنه يعتقد أن المساس بالاسلام انما هو ضياع لكيانه ووجوده — ضد كل استعمار أوروبي ، يستوي في ذلك الاستعمار الايطالي وغيره • انتظر المراقبون ما سيحدث من رد الفعل تجاه رحلة موسوليني ، وما صرح فيها من تصريحات على لسان المسئولين الايطاليين التي لم يقصد منها صداقة خالصة ، بل استعملت كلمة الصداقة للوصول الى أهداف سياسية في المنطقة الاسلامية ، ولم يطل انتظارهم ، فقد قام شيخ الأزهر في القاهرة ، الشيخ مصطفى المراغي يرد على ما حدث في ليبيا ، وعلى ادعاء موسوليني — ويتمتع شيخ الأزهر بمركز

= في ١٨٩٦/٦/٥ وتوفي في ١٩٤٠/٦/٢٨ (أصابته طلقة طائشة قضت عليه) فاشستي ، أحد المقربين لموسوليني ، تولى وزارة الطيران المدني في الفترة من عام ١٩٢٩م حتى ١٩٣٣م ومن ١٩٣٣ تولى منصب الحاكم العسكري في ليبيا . (م . ش) .

كبير فى العالم الاسلامى كله ، يسمع له المسلمون ويطيعونه — فأعلن أن حامى الاسلام « لا يكون الا مسلما ، ولن يكون مسيحيا اطلاقا ، ولا يبحث الاسلام عمن يحميه ولا يركن الى أحد ، ولن يفرط المسلمون فى عقيدتهم ووسائل الدفاع عنها تجاه القوى غير المسلمة ، ولن يهدى سيفه لغير مسلم ليستعمله استعمالا سيئا » •

قوبلت هذه الكلمات — التى لا يفهم المرء المقصود منها بسهولة — بالاستحسان فى العالم الاسلامى كله ، حتى وصل دويها الهند وأفغانستان ، واندلعت فى الصحافة الاسلامية موجة هجوم شاملة وعنيفة ضد الاستعمار الايطالى ، اندلعت فى الوقت الذى ظنت فيه روما أن مجهوداتها فى العالم الاسلامى توجت بالنصر ، وفتحت باب الدخول الى رحاب الاسلام ، حيث يتعانق الفاشيون والمسلمون عناقاً حاراً ، وكانت أقوى من الحملة الصحفية التى شنت أيام الحرب الأثيوبية وأشد عنفاً ضد ايطاليا منها ضد القوى الأوروبية الأخرى • كتبت احدى الصحف الاسلامية بأن المسلمين داخل حدود طرابلس لم ينسوا اطلاقا ما حدث للسنوسية ، أما بالنسبة للاسلام وقوته ومستقبله فهى مسألة اسلامية داخلية ، وتفاهم المسلمون فيها وتشاورهم فيما يتخذ ازاءها أجدى على الاسلام وأبعد أثرا من الأصوات المنبعثة من نفير احدى القوى الأوروبية • وهكذا قوبلت ايطاليا — فى اللحظة التى ظنت فيها أن مقابلتها مع الاسلام قد نضجت وأوشكت أن تنتج الثمار المرجوة — بذلك الرفض الحاسم ، وعدم الثقة ، وهما صفتان تميزت بهما القومية الاسلامية فى كل لقاءاتها مع القوى الغربية • وصف عدد كبير من الصحف العربية عرض موسولينى باقامة علاقة ود وصداقة مع المسلمين بأنه نفاق ، وأمر يدعو الى السخرية والاستهزاء ، بينما فسرت الدوائر المعتدلة ، الاتجاه الايطالى نحو الاسلام بأنه عمل دعائى محض ، اتخذته ايطاليا وسيلة للمناورة فى جبهة المسلمين التى تقف موقفاً عدائياً ضد انجلترا •

ان من الخطأ أن يعتقد المرء بعد هذه التجربة أن العالم الاسلامى

أصبح صديقا لايطاليا ، لأن الأمور هادئة فى المستعمرات الايطالية ، اذ أن كل الخواطر — سواء أكانت سابقة أو لاحقة — التى تدور فى خليـة جميع العناصر الوطنية فى الشرقى الأدنى والأوسط — وهى عناصر تتولى مراكز الزعامة السياسية — تدور حول الحصول على الاستقلال الوطنى ، وتنطلق تياراتها وينبعث كفاحها من هذه النقطة ، وان كانت صورة هذا الاستقلال هنا وهناك ليست واضحة ، وتتصارع المفاهيم حولها ، بل تتناقض الآراء وتقف وجها لوجه حول أسلوب الوصول الى هذا الهدف • فلو قوبلت ايطاليا الفاشية — رغم الشك الراسخ فى النفوس وعدم الثقة — بالبشاشة والبشر واستقبلت استقبال الصديق فستكون هذه الصداقة نفعية يقصد من ورائها استغلال القوة الايطالية ضد القوى الاستعمارية الأخرى ، فكما رغبت شعوب الشرق الأوسط أثناء الحرب — وبعدها — أن تجذب الجانب الألمـانى الى ناحيتها كقوة مضادة للاستعمار الانجليزى والفرنسى ، تعتقد اليوم أنها وجدت هذه القوة المضادة ، ألا وهى روما ، اذ تأمل هذه الشعوب أن ترفع كابوس الاستعمار الانجليزى والفرنسى من أرضها بمساعدة روما ، وأن تهيىء لهم تلك المساعدة مناخاً يمكنهم من الاسراع فى طريق تجديد وتطوير العالم الاسلامى ، وتأتى تونس وفلسطين فى مقدمة المناطق التى تختبر فيها مدى فاعلية هذا التفكير ، ومقدار نجاح الشرق الاسلامى فى الاستعانة بروما ، لضرب القوتين الاستعماريتين الأخريين ، فهنا — حيث تناضل الجبهة الاسلامية نضالا مرا ضد فرنسا وانجلترا وتصر على موقفها اصرارا عنيفاً ضد المخططات الاستعمارية — تستطيع الدعاية الايطالية أن تجد لها مجالا ، وأن تحدث صدى يردده أولئك الذين يبحثون عمن يعينهم على الدفاع أمام هجمات الدخيل الأجنبى ، وهنا يحدثنا التاريخ أيضاً عن موقف مماثل ، يكاد يعيد نفسه ، مع تغيير بسيط فى بعض الأطراف ، فبعد انتهاء الحرب — تقريباً فى أوائـل العشرينات — أرادت انجلترا وفرنسا تقسيم تركة الباب العالى فى غرب آسيا طبقا لما اتفق عليه فى معاهدة — « Seikes - Picot » ، غير أنهما

اختلفا فى تحديد مناطق نفوذ كل منهما ، وحاول كل طرف أن يظفر بنصيب أكبر ، ويستولى على المناطق التى يرى أنها تخدم مخططه الاستعمارى ، وفى هذا الجو حاول القوميون الاسلاميون انتهاز فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا للوصول الى تحقيق أهدافهم ، واليوم يحاولون استغلال الخلاف الانجليزى الايطالى بطريقة مماثلة لما حدث فى الماضى ، بغية الاستفادة منه على نحو يوصل الى تحقيق الأهداف الاسلامية ، فحركات القومية الاسلامية — فى كل مكان ظهرت فيه — لا توجه نشاطها بنوع خاص ضد انجلترا فقط ، أو فرنسا أو ايطاليا ، بل هى أصلا تكافح ضد الاستعمار ، أياً كان نوعه وجنسيته ، فالصداقة أو المعاهدة — وما أشبهها من اتفاقيات ومعاملات — مع احدى القوى الاستعمارية — ويندرج تحت ذلك ايطاليا أيضاً — تظل قائمة ، طالما أمكن التعاون معها فى مقاومة قوى استعمارية أوروبية أخرى فى احدى الجبهات ، ومن الخطأ البين أن يعتقد أن قوى القومية الاسلامية المعادية للاستعمار أصبحت صديقا حميما للاستعمار الايطالى ، أو أن العلاقة بينهما تنمو نموا ينبع من محبة طبيعية ، أو تقوم على ود صاف نابع من القلب ، اذ لم تنجح ايطاليا حتى اليوم فى اقناع الدول الاسلامية فى الشرق الأدنى بأن موقفها تجاه الاسلام وقضاياه مع القوى الاستعمارية الأخرى خال من الأطماع ، فليس مقيداً بشرط ولا يصاحبه فرض اتجاهات معينة .

لا زالت روما تعتقد أنها ليست فى حاجة الى اتخاذ اجراءات فى مستعمراتها الاسلامية لمواجهة احتمال ظهور حركات التحرر ، بينما تساعد هذه الحركات سرا فى الأجزاء الأخرى من العالم الاسلامى ، لأنها اعتمدت على الأسلوب الذى أطلق عليه اسم « العمل المشترك » ، ففى ليبيا تضمن القانون الجديد الذى وضع للمسلمين هناك التعبير عن هذا الاتجاه بهذا الاسم ، بغية اخضاع الطموح الوطنى التحررى ، والسيطرة على القوى المناهضة للاستعمار ، اذ شعار « العمل المشترك » يمتص الكثير من دوافع الثورة ضد الوجود الأجنبى ، فهو بمثابة الدواء المسكن

للانفعال الوطنى تجاه القوى الأجنبية • أما شرق افريقيا فقد مزقه الانقسام الدينى والصراع الطائفى ، فلا يمكن أن تقوم فيه فى المستقبل المرئى نظم سياسية يكون لها من التأثير بالحركات القومية الاسلامية فى منطقة الشرق الاسلامى ما يجعلها مصدر خطر على الاستعمار الأوروبى •

منعت سلطات الاحتلال قيام مثل هذه الأنظمة السياسية فى ليبيا ، وأضيف، الى هذا المنع عدم وجود ما يسمى بالطبقة الوطنية بين العرب ، تلك الطبقة التى يستمد منها الكفاح السياسى — فى المناطق الاسلامية الأخرى — قوته ، وتقذف بالوقود فى أتون الثورة ضد الاستعمار الأجنبى ••• هرب أفراد هذه الطبقة — وكانوا قلة — الى خارج ليبيا أمام الزحف العسكرى وتحت ضغط الحكم الاستعمارى القاسى ، ورغم هذا وصل الدوى الذى أحدثته هذه الطبقة — التى تعيش اليوم فى المنفى — الى روما ، فأعلن المطالب السياسية لطرابلس وبرقة ، اذ قدمت « جمعية الدفاع عن طرابلس » — التى اتخذت مقرها فى دمشق وكان أعضاؤها من بين الثلاثين ألف ليبى الذين يعيشون فى المنفى — المطالب الوطنية للعرب الليبيين الى المسئولين فى روما ، ووضعت برنامجا لتطوير المستعمرة الايطالية فى شمال افريقيا على نمط ما نفذ فى سوريا وفى العراق ، وما يأخذ طريقه الآن الى التنفيذ فى تونس •

* * *

حاولت القوى الاستعمارية الأوروبية — انجلترا وفرنسا وايطاليا — المحافظة على نفوذها وسلطاتها فى صراعها مع العالم الاسلامى ، كما رغبت وركزت جهودها لتحقيق هذه الرغبة فى ضم المزيد من المناطق تحت لواء سيطرتها ••• وبذلت جهود — تفاوتت فيما بينها — فى استخدام نغمة الصداقة مع الشعوب الاسلامية لتحقيق أغراضها السياسية ، وبجانب هذه القوى الثلاثة ظهرت اليابان كقوة آسيوية ثانية تلى روسيا التى سلكت فى سياستها مع المنطقة الاسلامية طريقا آسيويا •

وجهت اليابان من جنوب شرق آسيا حملة دعائية واسعة النطاق بين شعوب الاسلام ، ابتداء من الهند حتى ضفاف النيل ، واتخذت هذه الدعاية فى بداية أمرها نداء « آسيا للآسيويين » شعارا لها فى محاولة لفتح أبواب دول وسط وغرب آسيا بهذه الكلمة السحرية ، ثم اقتفت طوكيو أثر هذه الدعاية حاملة معها بنوع خاص مخططات ترمى الى تحقيق أهداف اقتصادية ، ونجحت فى ذلك ، اذ كان زحف اليابان الاقتصادى فى الدول الاسلامية يفوق تصور الخيال ، ولم يعترض طريقه أحد ، الا عندما بدأ فى مضايقة الصناعة الوطنية الحديثة فى البلاد الاسلامية .

نجحت طوكيو فى غزو مناطق من العالم الاسلامى اقتصاديا ، وفتحت أسواقا لصادراتها فى البلاد الاسلامية ، فحتم عليها هذا الوضع أن تبحث عن طريق يضمن لها المحافظة على بقاء تلك المناطق تحت سيطرتها الاقتصادية ، ويكون أشد أمنا من الشعار السياسى الخالص « آسيا للآسيويين » ، فوجهت الدعاية وجهة اسلامية ، وبذلت جهوداً لادخال اليابان — دعائيا — فى منطقة وحدة المصير الاسلامى التى تحيط العالم الاسلامى واليابان ، كما لو كانت دائرة الترابط الجماعى فهم شركاء فيما يوجه اليهم من هجمات ، اذا يجب تماسكهم وتعاونهم .

وهكذا امتدت فوق اليابان موجة اسلامية ، ويخبرنا زوار اليابان الخبراء فى شئونها — باجماع — فى تقاريرهم عن ازدياد الاهتمام بالاسلام هنا وارتفاع عدد المساجد التى يجرى تشييدها فى مناطق مختلفة فى جزر الامبراطورية اليابانية ، ونمو عدد المسلمين اليابانيين ! بينما كان عدد المسلمين قبل الحرب قليل جداً فى اليابان . قدمت الدولة مساعدات لانشاء معهد للدراسات الاسلامية فى طوكيو ، ويتمتع عميد هذا المركز الثقافى الاسلامى فى الشرق الأقصى — الامام « خوربنجالى Khur bangali » — بثقة الدوائر الحكومية اليابانية ، حتى الذين لم يعتنقوا الاسلام . ومن هذا المعهد انتشر القرآن والتعاليم الاسلامية فى كل أنحاء اليابان ، اذ ترجم الى اللغة اليابانية وطبع منه آلاف من

النسخ ، وزعت على جميع المناطق • نشطت الجمعية الاسلامية التى أسست فى عام ١٩٣٦ فى نشر التعاليم الاسلامية نشاطا لا نظير له ، فأسست معهداً عالياً للدراسات الاسلامية ، استدعى للتدريس فيه علماء كبار من الجامعة الاسلامية المشهورة فى القاهرة ••• من الأزهر ، وساعدت الدولة ادارة شئون المنح الدراسية على تقديم منح دراسية سنوياً لعدد كبير من الطلبة المسلمين فى أفغانستان وفلسطين وسوريا والعراق والجزيرة العربية ، ليدرسوا فى المدارس العليا فى طوكيو ، ففى عام ١٩٣٦ م كان عدد الطلبة المسلمين فى المدارس العليا اليابانية يزيد عن عددهم فى المدارس الايطالية ثمان مرات ، على الرغم من أن ايطاليا تحاول — كما ذكرنا سابقاً — جذب الشباب المسلم الى ناحيتها عن طريق تقديم المنح الدراسية وحجز أماكن لهم فى مدارسها العليا •

يتزعم «محمد عبد الحى» المسلمين اليابانيين ، وهو ينحدر من أسرة تاتارية عريقة النسب ، هرب من البلشفيين الى طوكيو ، فقوبل بالترحاب ، ووجد ملجأ أميناً وملاذا يستقر فيه ، اذ هو عالم يتمتع باحترام بالغ ، وتقدير كبير فى الدوائر العلمية الاسلامية ، ويبدو أن السياسة اليابانية الرسمية فطنت الى استخدامه داعية يبشر بصداقة اليابان للعالم الاسلامى ، ويدعو بين المسلمين الى ضرورة اقامة هذا الترابط بين اليابان والدول الاسلامية •

لماذا يهتمون فى اليابان منذ نهاية الحرب[1] اهتمام سافرا بالاسلام، بينما لم يلتفت أحد قبل الحرب الى هذه الناحية ؟

لماذا يجيد اليوم كثير من اليابانيين التحدث باللغة العربية أو الفارسية أو التركية ، بينما كان من المتعذر قبل الحرب أن تقابل أحداً فى امبراطورية الشرق الأقصى يستطيع التحدث بلغة اسلامية ؟

لماذا ينشأ اليوم فى كل المدارس اليابانية العليا كراسى لتعليم هذه اللغات ، وأقسام تدرس فيها آدابها ويعنى فيها بنوع خاص بدراسة لغة القرآن ؟

---

(١) الحرب العالمية الأولى .

أيكون السبب أن قوة الجذب الروحى التى يتمتع بها الاسلام استولت على مشاعر اليابانيين فأسرتهم ؟ تلك القوة التى أضاعت مجهودات البعثات التبشيرية المسيحية فى أواسط افريقيا واطمت المبشرين بعنف ، رغم أنها لا تعرف نظام الارساليات التبشيرية ، ولم يمارس المسلمون هذا النوع من طرق الدعوة الى دينهم ، بينما تعمل قدرات علمية جبارة فى تنظيم الجهاز التبشيرى المسيحى ، ويستعان بخبراء ومعلومات مسيحية من مختلف الأجناس لتنسيقه وتطويره ، وله دعم مالى لا يتصوره خيال ؟ ربما استولت هذه القوة على مشاعر اليابانى ، ولكن اذا أثرت فى اليابان ، فسوف تقابل الشعور الدنيوى العملى الذى يميز اليابانى ، فى المسائل الدينية أيضاً ، ولن يعطينا هذا الاحتمال اجابة نابعة من التفكير اليابانى ، اذ أن تاريخ اليابان يبين لنا هذا ، فقد كانت البوذية فى اليابان دين الدولة الرسمى قبل عودة الملكية الى الحكم فى عام ١٨٦٨[١] ، وأثناء تنظيمات عودة الملكية احتلت « الشنتوية Shintoismus » [٢] مكان البوذية وأصبحت دين الدولة الرسمى ، ولم يفضل الشنتوية على البوذية لأنها تحتوى على آداب قيمة ، أو أن لها قوة روحية بل لأن الشنتوية دين قومى وطنى يتناسب مع موجة التحرر الوطنى التى نقلت اليابان الى حقبة تاريخية جديدة ، وهيأت لها مكاناً بين القوى العظمى فى العالم • وبعد أعوام قليلة من عودة الملكية تكونت لجنة فى اليابان للبحث فى مسألة الأديان واختيار أفضلها بالنسبة لليابان من الناحية الدينية القومية •

ان الأسباب التى جعلت اليابان تقترب أثناء عودة الملكية من الشنتوية تشبه الدوافع التى تدفع اليابان اليوم الى الاقتراب من الاسلام ، فقد أملت اليابان فى الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية

---

(١) ظلت الشنتوية دين الدولة الرسمى فى اليابان فى الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٩٤٥م •

(٢) ألغيت الامبراطورية فى ١١٩٢م ثم عادت مرة اخرى الى الحكم فى ١٨٦٨م •

من وراء الالتقاء بالاسلام ، اذ تستطيع صداقة المسلمين — بالأخص المسلمين اليابانيين — أن تلعب دوراً كبيراً فى كسب عاطفة ٣٠٠ مليون مسلم فى آسيا وافريقيا ، وتغزو أسواقهم ، وتؤثر على زعمائهم المفكرين فتجذبهم الى جانب اليابان ، كما تستطيع أيضاً أن تشرك اليابان أو على الأقل تستشيرها — عند بناء قوة الدفاع لشعوب الشرق الاسلامى • ويمكن أن يؤدى ذلك الى قيام جبهة مشتركة تتعاون فى ميدان نضال السياسة العالمية ، ويسند بعضها البعض فى الصراع العالمى مع القوى الاستعمارية خصوصاً وأن كلا الجانبين الاسلامى واليابانى — يحارب فى جبهة واحدة ضد الاستعمار الغربى •

أظهر تطور الأحداث فى السنوات الأخيرة مدى تحقيق هذا الأمل ومدى انتقال هذا التفكير من الناحية النظرية الى التطبيق العملى ، فالزحف الاقتصادى اليابانى فى المنطقة التى تضم السودان ومصر وفلسطين وسوريا والعراق وايران انتشر دون ضجيج بسرعة لا يعرف لها مثيل فى تاريخ الاقتصاد العالمى ، ولم تجد الصادرات اليابانية مقاومة من الحصون الاقتصادية التى أقامتها القوى الأوروبية ، بل من سياسة حماية الصناعة الوطنية الحديثة فى بلاد العالم الاسلامى ، اذ اهتمت الدولة بهذه الصناعة بأسلوب لولبى ينبىء عن ذكاء المهتمين بها ، كما يظهر هذا — من وقت قريب — التطور الصناعى فى مصر ، حيث هددت واردات القطن بخنق صناعة النسيج المصرى الحديثة ، وفيما عدا هذا — وبالذات بالنسبة للصادرات الأوروبية — فقد أصبحت كلمة الخطر الأصفر فى منطقة العالم الاسلامى حقيقة ماثلة أمام الأبصار ، اذ تقف اليابان اليوم عند شواطىء البحر الأبيض المتوسط•بأى سرعة يتقدم الزحف الاقتصادى اليابانى ، وما هى قوته ؟ يشير الى هذا اشارة واضحة بعض الأرقام التى نشرت فى فلسطين ، وهى تتعلق بناحية واحدة من مجالات الواردات اليابانية المتعددة ، فهى تعطى أرقام السوق التى — على الرغم من وقوعها فى المنطقة الاسلامية — تحتاج الى مساعدة أوروبية كبيرة • لأن العنصر اليهودى المهاجر من أوروبا يعتمد على هذه

المساعدة ، ففى السوق الفلسطينية ، كان لليابان فى عام ١٩٣١ م : ٦٪ من مجموع واردات المصنوعات الحريرية والقطنية ، ثم ارتفعت فى عام ١٩٣٢ الى ٢٨٪ وفى عام ١٩٣٣ وصل مجموع ما صدرته اليابان من هذه البضائع الى ٥٦٪ من مجموع واردات فلسطين من هذا النوع من المصنوعات ، ثم واصل ارتفاعه فبلغ فى عام ١٩٣٤ م الى ٦٧٪ وعليه فقد ارتفعت الواردات اليابانية من بضائع الحرير والقطن — أى واردات فلسطين من اليابان — فى مدة لا تتجاوز أربع سنوات الى أكثر من عشرة أضعاف .

لم يصبح ارتفاع الصادرات اليابانية فى كل بلاد العالم الاسلامى مزعجا بهذا الشكل الذى يصيب رأس المفكرين الاقتصاديين بالصداع والدوار ، وليست هذه القوة والانتشار فى كل أصناف البضائع ، ولكن اتجاه الغزو الياباني موجود فى كل المجالات حيث تنزل البضائع اليابانية ساحة المنافسة .

كيف كان من الممكن أن تنتزع اليابان هنا فى وقت قصير جدا صادرات الصناعة الأوروبية من مركزها الذى أعدته منذ سنين طويلة ؟ فليس رخص الأسعار هو السبب الوحيد الذى جعل البضائع اليابانية تتغلب على البضائع الأوروبية فى المنطقة الاسلامية التى تخضع — وان كان هذا الخضوع يتفاوت من بلد الى أخرى — للنفوذ الأوروبى عسكريا وسياسيا ، بل يرجع سرعة تغلغل الاقتصاد الياباني فى الشرق الاسلامى الى أسباب أخرى ، منها أنه قام على قاعدة راسخة استقرت فى لقاء اليابان مع الاسلام ، وأن اليابان — بموقفها من الاسلام واتجاهها نحوه — لم تحمل لواء النضال الاقتصادى ضد القوى الغربية بأسلحة اقتصادية فقط ، بل شمل جبهة أعرض من المنافسة فى المجالات الاقتصادية ، فالاذاعة الاسلامية — التى تبث برامجها من اليابان نحو الشرق الاسلامى — يتعدى أثرها المجال الدينى ، فيمهد الطريق للبضاعة اليابانية فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، وتقترن المسائل الاقتصادية بالدينية ، ويسيران سويا جنبا الى جنب عبر البلاد التى تدين بالاسلام ،

وتؤدى الأحداث الدينية الى نجاح فى المجالات المادية ، ولتوضيح ذلك نضرب بعض الأمثلة •

منذ زمن قريب جـــدا احتفـــل فى مدينـــة « كوبـــى Kobe » فى اليابان بافتتاح مسجد المسلمين اليابانيين احتفالا لم يسبق له مثيل فى تاريخ اليابان ، أسهمت فيه الجهات الرسمية فى الدولة فكان عيدا للمسلمين وصورته أجهزة الدعاية بأنه معنى من معانى تبجيل الله ، واكراما لنبيه محمد [ﷺ] ، وبعثت الدعاية اليابانية بتقرير عن هذا الاحتفال الى صحافة العالم الاسلامى ، فخرجت براعم بذور هذه الدعاية ، يفوح أريجها فى أنوف المسلمين • كان المسجد كبيرا جدا فأضاء حب اليابان للاسلام ، كما لو كان مشعلا وضاء مرئيا للعالم الاسلامى كله •

كان المسلمون اليابانيون هم الطلائع التى تمهد الطريق فى كـــل بلد اسلامى تريد اليابان أن تفتح فيه سوقا تجارية ، ففى كابـــول عاصمة أفغانستان دخل أول وفد تجارى يابانى فى خريف عام ١٩٣٤ م وكان على رأسه أحد المسلمين اليابانيين ، فكان أول عمل يقوم به ، ذهابه الى المسجد بصحبة كبار رجال الدولة الأفغانيين للصلاة ، وبعدما أصبـــح واضحا أنهم متحدون فى العقيدة ، وفى التوجه الى الله الواحد ، بدأت المحادثات بين الجماعتين فى جو الاخوة الاسلامية التى تفيض على الوجوه بشرا وسرورا •

حيثما يحل المسلمون اليابانيون ـــ سواء فى ايران أو العراق أو فى مصر أو فلسطين ـــ فى وطن اسلامى كتجار أو خبراء أو وكلاء أو مهندسين فانهم يمهدون الطريق لليابان ولقائها الاقتصادى مع الشعوب الاسلامية •

أقيم عقب الغزو الاقتصادى مشروعات لتأمينه وتثبيته ، ففى كل مكان ظهرت وفود تجارية يابانية ، وأسست غرف تجارية ، وافتتحت خطوط للسفن التى تربط اليابان بموانى العالم الاسلامى بطريق مباشر ، وبقيام مثل هذا الاتصال يهيأ الجو للاقتصاد الاسلامى أن يشارك الاقتصاد

اليابانى مشاركة تتناسب مع الارتباطات الجديدة دون أن يكون ذلك عائقا للأهداف اليابانية ، وفى نفس الوقت يحافظ على عدم اساءة احساس الاقتصاد الوطنى الاسلامى •

وهناك باعث آخر دفع الى الترحيب بوجود اليابان فى المنطقة الاسلامية ، اذ يعتبر الشرق اليابان قوة تقود نضالا اقتصاديا — بأسلوب جبار — ضد القوى الغربية ، أى أنها عدو حقيقى للاستعمار الغربى ، اذن اليابان عدو لعدو ، فهى حليف طبيعى ، فكل قطعة من البضائع اليابانية تباع فى المنطقة الاسلامية فانما هى ضربة موجهة ضد أولئك الذين تحاربهم القومية الاسلامية ، وتسعى لرفع وصايتهم التى فرضوها على شعوب منطقة الشرق الاسلامى • وكل كسب يابانى يعنى خسارة لأولئك الذين يناضل الاسلام ضد أطماعهم السياسية نضالا مريرا ، ويتصدى لمخططاتهم التوسعية باصرار عنيف وعزيمة لا تلين ، فالزحف اليابانى يدل فى نفس الوقت على تقهقر الأوروبيين الذين لا يرون فى المسلم اطلاقا انسانا يساويهم فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، ولا ينظرون اليه نظرة المساواة فى الآدمية ، بل يعتبرون أنفسهم أعلى منه خلقا وخلقا ، فهو — أى المسلم — ذلك الانسان الذى يسمح الأوروبى لنفسه أن يبتسم له من بعد ويحذر الاقتراب منه • دفع موقف الشعوب الاسلامية العدائى للدول الأوروبية — وقد نتج من ماضى وحاضر الدول الغربية السياسى — الى ترحيب هذه الشعوب باليابان، واعتبارها حليفا يناضل معها ضد الجشع الأوروبى • وبات واضحا فى ذهن المسلم أن الانسان ذا البشرة الصفراء هو أخ له فى ساحة الكفاح ضد الانسان الأبيض •• ضد الاستعمارى المسيحى • من الحقائق التى لا يمكن انكارها ؛ أى هذا الشعور لا يوجد لدى كل فرد مسلم كما يصوره المراقبون على الورق ، ولكن يراه كل انسان — فضلا عن المراقبين — فى تصريحات الزعماء المسلمين المتكررة أكثر حدة ضد الغربيين مما يكتبه ويسطره المراقبون السياسيون والاقتصاديون •

نما شعور المسلمين الحار — وكان سببه موقفهم العدائى تجاه

أوروبا — تجاه اليابان ، فأحاط المصالح اليابانية فى الشرق بحنان فياض ورعاية خاصة ، وانتشر ضوء منار الاسلام — الذى اشتعل فوق الامبراطورية فى الشرق الأقصى — واشتد نوره يوما بعد يوم ، فامتد شعاعه عبر الحدود حتى وصل الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وصل الى ساحة الكفاح التى ابتدأت فيها حقبة تاريخية جديدة فى سجل تاريخ النزاع بين الشرق والغرب .

* * *

obeikandl.com